حائزة على جائزة مجلس الشمال للأدب

الثعلب الأزرق

شون





شون

الثعلب الأزرق

ترجمها من الآيسلندية إلى العربية
مازن معروف







الثعلب الأزرق

تصميم الغلاف: سحر مغنية

تمّ نشر هذا الكتاب أصلاً باللغة الآيسلندية عام 2003.
Sjón, *Skugga - Baldur*
Bjartur, Reykjavík



Translated from Icelandic into Arabic with the support of
Bókmenntasjóður - the Icelandic Literature Fund.

ISBN- 978- 1- 85516- 948- 7

الطبعة العربية

الطبعة الأولى 2013

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، بيروت.
ص.ب.: 113/5342. الرمز البريدي: 2033 - 6114

هاتف: 866442 -1 -961+، فاكس: 866443 -1 -961+

e- mail: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com
تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

I

(9 – 11 كانون الثاني/ يناير 1883)

الثعالب الزرقاء والحجارة تتشابه بدقة، الأمر الذي يُعدُّ مدعاةً للدهشة؛ فهي تستلقي إلى جوار تلك الحجارة في الشتاء حتى يفقد المرء كلَّ أمل بالتفريق بينها وبين الصخور؛ إنها تتفوّق بالفعل في قدرتها على التمويه على الثعالب البيض التي لا بد وأن تخلّف دائماً ظلاً ما أو أن تلوح بمسحة مُصفرّة وسط الثلوج.

ثعلبة زرقاء ما تتراص بإحكام إلى حَجَرِها، تاركةً للثلج أن ينذلف عليها كيفما اتفق مدفوعاً بالريح. تدير وركيها للطقس، تلتفّ على نفسها وتدسُّ أنفها تحت فخذها، مسدلةً جفنيها حتى بالكاد يمكن تبيّن بؤبؤي عينيها. وهكذا، يتحتم عليها أن تبقي نظرها مثبّتاً على الرجل الذي، لثماني عشرة ساعة خلت، لم يغادر مكانه منذ أن اتخذ له ساتراً من الثلج تحت عتبة ناتئة، هنا في أعالي منحدرات آوشهايمَر. فقد انجرفت الثلوج وراحت تتساقط فوقه حتى بات شبيهاً بحدبةٍ تكوّنت جراء انهيار حائط.

عليها، هي الكائن البري، أن تلتزم الحيطة، فلا تغفل عن حقيقة أن ذلك الرجل ليس إلا صياد.

بدأت المطاردة في الجنوب البعيد، في بوتْن. كانت السماء صافية، وأول توهّج في ذلك النهار كان من السواد كما لو أنه فصل الشتاء. انزلق الرجلُ بين الحقول المتاخمة للبيوت، ثم مال بمساره شمالاً نحو آوسَر وصولاً إلى ليتلا - بيارغ. هناك، لم يكن الثلج قد تساقط بعد.

رصد على حافة المنحدر الشبيه بحاجب عين، حركة ما. أقحم يده داخل ثيابه وأخرج منظاراً، طَوَّلَه ثم وضعه أمام عينه الممتازة النظر:

نعم، لم يكن هناك أي مدعاة للشك أو الخطأ!

إنها هناك، ابنة الثعلب رِينْارد تُنَقّل خطواتها.

بدت مسالمةً، وكأنها غافلةٌ عن أيّ خطر داهم. كلّ حركة نمت عنها كانت تدلّ على أنها في تطوف سعياً إلى لقمة طعام؛ فقد كانت منصرفةً إلى شأنها بتؤدة وكأنها عازمةٌ على تحقيق هذا الهدف دون سواه.

أما الصياد، فراح يتفحّصها بنظرة متفرّسة.

كان يبذل فكره كله للتركيز عليها، محاولاً التقاط أقلّ إشارة قد تفصح له عمّا تنوي الثعلبة القيام به، وعن الوجهة التي ستسلكها بعد أن ينتهي تطفّلها فوق قمة المنحدر. لكنها، وعلى حين غرّة، أطلقت ساقيها للريح لتغيب في المدى؛ لماذا؟ لم يستطع الرجل معرفة السبب. سلوكها برمته بَيَّنَ أنها قد استشعرتْ بحواسها خطراً مميتاً. لكن من غير الممكن أن يكون قد ساورها أدنى شك بشأنه – ليس بالشكل المتعارف عليه.

لا بد أنها تمكنت من النفاذ إلى بئر نواياه فتوجستْ:

هذا رجل يعشش الصيد في ذهنه.

توجّه الصياد نحو التلة. إذا ما أبقى على صورة الثعلبة ثابتة في ذهنه فسوف يساعده هذا على العثور عليها لاحقاً دونما حاجة إلى بذل مجهود عظيم: "إنها تغزل فوق أكوام الثلج كدُوَّامَة بُلبل".

في أعالي المنحدر استغرق وقتاً في معاينة آثار قوائم الثعلبة. باعد بين إبهامه وسبّابته، وقاس بَصَمَتها؛ إنها وحشٌ مفترس ذو أبعاد جسمانية كبيرة. داخل ندفة ثلج استقرتْ على رأس إصبعه، كان هناك شعر لامع

– ليس هناك أدنى شك بشأن اللون: أزرق.

شرائط عمودية من الغيم في جهة الغرب.

إنها إنذار بعاصفة في طريقها إلى هنا.

أما الثعلبة فلم يعد من الممكن رؤيتها.

الدرب، على امتداد البصر، منبسط.

مشى الرجل بنشاط تلفح الريح ظهره. لم يعد يشكّل فرقاً أن تشتمّ الثعلبة رائحته؛ ؛ فهي الآن تعرف أنه يطاردها.

كان يتوقّف من حينٍ لآخر كي يتفحّص أثرها، بالطريقة نفسها التي اتّبعها من قبل. طوّعَ كلّ فكرة في رأسه كي يخمّن الوجهة التي سلكتْها ويحدد الاتجاه الذي يمكّنه من قطع الطريق عليها.

صوت ما دوى في رأسه مرشداً إياه إلى وجهتها والطريق التي ينبغي عليه أن يسلكها:

"الثعلبة تعبر السهل الفسيح الأرجاء نحو الشمال. ستغيّر بعد ذلك مسارها بشكل حاد نحو الشرق، مضاعفةً المسافة التي أوصلتها إلى الشمال هنا، كي تستقر أخيراً في أراضي ميلر المفروشة بالحصى، إذ لا شيء سوى الحجارة هناك؛ إنه مكان مثالي للاختباء بالنسبة إلى ثعلب أزرق".

هل كانت تنوي التزام الحيطة والحذر حقاً؟ هل انقادَ ذهنها للخطر المحدق بها؛ فأطلعت الرجل بالتالي على ثنايا أفكارها؟ هل نأت فعلاً عن بذل أيّ جهد يدرأ ذلك الخطر عنها؟

وهل تلقّى الرجل بدوره خاطراً ذهنياً ما من الثعلبة نفسها؟

الهواء فوق المنبسط الصخري ساكن، جامد بصورة قاسية؛ بالكاد تلامس نسمة وجنتيه. بعيداً، إلى الشمال، رأى نتوءاً ضارباً إلى الزرقة. تسمّر في مكانه. بعد برهة حلّ النشاط في النتوء، و لم يمض وقت طويل على ذلك حتى ارتفع بدن ثعلبة زرقاء بين الحجارة.

"ها. هي ذي هناك!"

حيوان مفترس قيّم ونادر. داكنة اللون كأرض مغرية للعين، لها فرو سميك وذيل كث، وثابة بشكل لا لبس فيه، كالجحيم. وها هي تنطلق بقفزات حادة جازمة.

استعدّ الرجل لمتابعة المطاردة.

لم تُكَذِّبْ توقعاته، فقد اتجهت الثعلبة مباشرةً نحو هبوب الثلج، وفي اللحظة التي كانت تستعدّ فيها لأن تبتلعها العاصفة الثلجية توقفت في مكانها وألقت نظرةً خاطفةً على الرجل.

حدث ذلك قبل أن تستأنف جَرْيَها بخطىً رائعة خاطفة في سرعتها.

ثمة أنينٌ في الهواء.

في البداية مرّ طائر ترجمان مندفعاً، ساحباً خلفه كمشة من شعر الرجل ونفحة من الهواء. كان يتبعه صقرٌ على علوٍّ مرتفع بجناحين يخفقان بثقة وانتظام.

أدار الرجل رأسه متملّصاً من تيار الهواء، شدّ وشاحه ولفّ حزام الكتف ثلاث مرات حول ذراعه اليمنى بحيث أبقى على حقيبته ثابتة عند مستوى الورك.

لم يكن متأخراً كثيراً عن موعد قدوم العاصفة.

متعباً راح يمشي في الضباب السميك والمنيع.

في البداية كانت الأرض تحت قدميه مفروشة بالحصى، ولم يكن يجد مشقة في المسير فوقها، غير أنّ الثلج سرعان ما تَخَثّرَ وييس؛ فتدهور الوضع.

وجب عليه الآن أن يثق بخيطه من الأفكار:

"ربما للثعلبة شخصية طفولية تفزع من الطقس. ستطمر نفسها داخل كوم كومة من الثلوج أو تحشر بدنها عميقاً في صدع تحت مستوى الجليد، وتمكث هناك إلى أن يمر هذا الطقس القبيح".

إنها فرصته الآن كي يقلّص الفجوة بينه وبين غريمته الصغيرة.

مضى يجرجر نفسه إلى الأمام.

لكن، ما إن شعر أنه بات على وشك إحكام قبضته عليها، حتى تعاظم عمق الثلوج. فوصل ارتفاعها إلى مستوى تَشَعُّبِ ساقيه - وفور قيامه بالخطوة التالية وجد نفسه قابعاً بصورة محكمة داخل مساره.

لم يعد يستطيع التقدم إلى الأمام ولا التراجع إلى الخلف؛ و لم يعد بمقدوره تمييز يده إذا ما وضعها أمام وجهه؛ فقد حاصرته العاصفة الثلجية من كلّ الجهات، ومن الأعلى والأسفل.

حين حلّ المساء كان الطقس قد أصبح أشدّ عنفاً. خَرَمَ البرد ملابسه رغم سماكتها، وأضحى جسمه بارداً حتى تحتّم عليه الارتعاش عمداً طلباً للدفء.

لكنّ الرجل قرّر أن يترك للثلج أمر طمره داخله.

أثناء حدوث ذلك كان يحرّك نفسه قليلاً ما سمح للثلج بتكوين قوقعة من حوله صادّة للريح.

إنه شخص متوسط القامة، متين البنية، عريض الصدر، ملامحه غليظة؛ جبينه العريض والمعتدل الطول يمنح وجهه شخصية خاصة. ولديه عينان صغيرتان، بلون الفولاذ الأزرق، تستقران عميقاً تحت حاجبين كثّين يلتقيان في المنتصف، وأنف غليظ وعالٍ كسدّ. هذه التشكيلة من الملامح المأخوذة من صورته الجانبية، بما في ذلك ذقنه، لم تكن تتلاءم مع لحيته الحمراء الداكنة المحقونة باللون الفضي، والتي تستلقي كاسيةً خديه وفكيه، حتى تطأ صدره. كان لشعره لون بنيّ كالأرض موشّح بالرمادي. كما استقرّتْ وحمة مُدَبَّبَة فوق منخره الأيسر.

هكذا كانت صورة الرجل القابع في جوف الثلوج.

باردًا كان الليل، طويلاً، متحفظاً على حاله طيلة الوقت.

حطم الرجل قوقعته الثلجية.

هلل لـ"ملكة الثلج" و"سيّد الريح الشمالية" لمنحه ملجأ في هذه البقعة المقبولة نسبياً على اليابسة؛ من موقع المراقبة هنا يستطيع أن يجول ببصره في كل الأماكن فوق فضلات الثلوج البيضاء.

راح الآن يقرص بدنه ويكبس على جسمه. وحين نجح في توليد الدفء في عضلات ذراعيه العلوية بفركهما، لبس قفازيه، أسند قبضتيه على حافة الثلج وشقل نفسه مرتفعاً عن عرشه ذاك.

أجل، كان له حظ كلب تافه.

ببندقية وحقيبة ملقاتين على كتفه، لم يخفِّف الرجل من سرعة سيره حتى وصل صخور لوفاكلوب الملساء، تلك البقايا الموجودة منذ العصر الجليدي أعلى الجبل، والتي لم يستلق ثلج عليها قط.

هناك، أزال عنه حقيبة الظهر وخلع قفازيه وجوربيه المحبوكين، ومددها جميعها على صخرة بجانبه حتى تجف.

لا، ولتحل اللعنة، فقد نزع عن جسمه كل درزة وجلس تماماً كما خُلِقَ: لا يرتدي شيئاً عدا جلده.

كان مولود الأرض التي هي ابنة للشمس.

انطلقتْ قرقرة في أحشائه اكتشف الرجل بفضلها أنه جائع؛ فهو لم يذق لقمة طعام منذ أن التهم قطعاً من سمكٍ مسلوق قبل أن يبدأ رحلته، وكان ذلك منذ عشرين ساعة.

لكنه أكل بعض الثلج منذ ذلك الوقت، والحقيقة تقال، فإنّ ذلك الطعام تافه ولا قيمة غذائية له. فتح حقيبته:

شرائح من لحم الضأن بسماكة اليد، كعكٌ من الشعير البري بزبدة الخروف حامضٌ كالمرارة، متوّجٌ بنقانق من لحم الضأن، رؤوس سمك قَدّ مجففة، مخلّل عصارة حلوى "البودِنْغ"، سمكٌ مجفّف، عصيدةٌ من خثارة اللبن وكتلة من السكر البني.

أجل، كان هذا كله في الفوضى - الحقيبة خاصته.

الشمس تدفئ جسداً أبيض لرجل، وطقطقة هيّابة للثلج الذائب تعوّض في صوتها عن غياب العصافير.

في رابعة النهار كانت القمم لا تزال تلمع وقد ظهرت لطخات من اللون الأزرق في السماء. استعاد في ذهنه أيام مجدٍ لا حصر لها قضاها في الجبال منذ كان غلاماً. ليس هناك ما يعادل جمال تلك الأيام، باستثناء الثريا الجديدة في الكنيسة في دالبوتن.

لا! انطرح الرجل أرضاً مبقياً جسمه في وضعية مسطحة: ما الذي لَمَحَهُ؟ هل هو مجرد جلمود صخر؟

انتزع منظاره لكنه لم يستطع رؤية أي شيء. هناك غشاوة على العدسة. مسحها بكمه. ماذا؟ هل يعقل أنه رأى ما كان يفكر به؟ تلاشى الأثر، لا، ها هو يعود مجدداً إلى المشهد:

رأس ثعلب. بالكاد ظلُّ رأس. بلون أزرق. طبعاً لا بدّ أنها هناك منذ بعض الوقت، تراقب. أغلق منظاره.

أطلقت الثعلبة صرخةَ ذعرٍ خثّرتْ الدم في عروقه.

في الأنحاء القريبة، الأرض تنساب في وتيرة واحدة، لا ملامح لها، إنها تنحدر صوب الشرق بكتل منخفضة من العشب وأخاديد صخرية ضحلة. ما من سبيل أمام الرجل كي يعترض الثعلبة دون أن تراه. إذن، سيمكث ممدّداً هناك حيث ألقى بنفسه حين رصدها.

وثبتْ الثعلبة فوق صخرة وبدأت تعوي. جلستْ، وكان خطمها يتجه إلى الأعلى كلما لفظتْ صوتاً.

هكذا، حاولتْ أن تحثّ الرجل على القيام بحركة ما. الأرجح أنها فقدت أثره عندما رمى بنفسه إلى أسفل.

استلقى الرجل على بطنه، وقد استطاع أن يلوي جسمه باتجاه الشمال. بندقيته أمامه، لكنه لم يجرؤ على إصدار أيّ حركة، إذ ليس هناك أي نتوء في الأرض الفاصلة بينه وبين الثعلبة، وما من شيء يحجبه عن رؤية صورتها. علاوة عن أن بندقيته لم تكن ملقّمة. ولو عبأها فبالتأكيد سيثير انتباه هذه النسخة من الثعالب الصغيرة.

كان عليه أن يفكر بسرعة إذا كان لا يريد أن يضيِّع هذه الثعلبة الصغيرة كما حدث البارحة - فهذا الأمر غير وارد الآن.

ماذا عليه أن يفعل؟

دارت الثعلبة حول الصخرة ثم استوت واقفة، مستعدّةً للتلاشي من جديد. انقلب الرجل على ظهره، وراح يؤرجح ذراعيه وساقيه في الهواء.

ثم دار دورة شبه كاملة وأقعى على أربع، رافعاً ساقه اليمنى ككلب يتبول على كتلة من العشب.

وراح يثغو بصوتٍ عالٍ كخروف.

معتمداً سلوكيات غير مألوفة كهذه تمكن الرجل من تأخير اقلاع الثعلبة.
حَبا كي يموّه نفسه وراح يفكر، بينما كانت الثعلبة تنتظر ظهور أعاجيب أخرى.

لقّم بندقيته، داكاً نصف الكمية المطلوبة من البارود. إنها الكمية التي يحتاجها إذا ما أراد إسقاط الثعلبة من الطلقة الأولى. دس يده في جيبه، وتحسس كتاب الترانيم الصغير والمهترئ. انتزع ورقة منه، جعدها بين أصابعه ثم أقحمها داخل فوهة البندقية. الآن لن يئن السلاح حتى وإن صوّبه مباشرة باتجاه النسيم الجاف.

أخذ يعمل بسرعة، فبلل مؤشر التسديد بلعابه ووضع فوقه قذاة من الطحالب البيضاء. تجمدت القذاة والتصقت بالمعدن. ضبط بندقيته وصوّب على نحو تجريبي؛ سيظل بمقدوره أن يميِّزَ الطحلب الأبيض مهما بلغت شدة الظلام.

استقام و صوّب بندقيته، متكئاً على ساقه اليسرى، صابّاً جلّ اهتمامه على الصخرة. لا، لقد توارت الثعلبة عن الأنظار مجدّداً، و لم يعد بالإمكان رؤيتها.

انتظر لوقت طويل قبل أن يخفض سلاحه؛ الثعلبة لن ترتكب الآن الخطأ الفادح. فالثلج يكسو الأرض من هنا وصولاً إلى منبع الجليد، ولا يمكن رصد حتى أصغر بقعة من اليابسة. فوق هذه الملاءة البيضاء ستخطّ الثعلبة حكاية ترحالها ما إن تُقلع من مخبئها.

متشبّثاً بسلاحه بكلتا يديه، شدّ الرّحال.

أمضت الثعلبة اليوم بطوله في الهرب، تارةً نحو التلة وتارةً صوب الوادي، وكان الرجل يتعقّب الآثار التي طبعَتْها قوائمها بصعوبة.

كانت الثعلبة رسالة تكليفه بالمهمة التي يجب عليه تنفيذها في الحياة الدنيا.

حين برز من تحت الجلمود العملاق الذي يسدُّ آوشهايمر كان قد غدا قاب قوسين أو أدنى من أن يفقد أثر الأنثى المشاكسة.

استطاع أن يميِّزَها عندما دارت ثلاث مرات دورة كاملة قبل أن تهبط أمام حجر، مكمِّمة خطمها بذيلها.

وفعل هو الشيء نفسه.

تنهار حواف ضوء النهار.

داخل الردهات السماوية تنتشر ظلمةٌ كافيةٌ الآن كي تبدأ شقيقات الأورورا بورياِلس رقصَها بالخمار بمرح. في لعبٍ لونيّ فاتن، يحلّقْنَ بخفّة ورشاقة على مقربة من المنصة العظيمة للجنّة، مرفرفات بردائهنّ الذهبي، فيما عقود اللؤلؤ تهوي منفرطة هنا وهناك من جرّاء وثباتهنّ البرّية. الاستعراض هذا يأتي في أوج بهائه بعيد الغروب.

يُسدَل الستار بعد ذلك ليستولي الليل على المشهد.

أصبح النوم ملحاحاً حدّ أنّ الرجل لم يعرف من قبل قوة قاهرة كهذه. ومض في ذهنه أنه يحتضر. شعر أنه ضعيف، فهناك ألم في رأسه وأنفاسه مجهدة. خدر يزحف داخل أذنيه، ومع ذلك كان لا يزال قادراً على سماع جلجلةٍ مكتومة، خبطاً. كان ذلك قلبه.

بمَ قد ينذر ذلك؟

في تلك اللحظة بالذات أطلقتْ الثعلبة صرخاتٍ تحذيرية ثلاث بدت كأنها تُسحَب بالقوة إلى الخارج. بالنسبة إليه، كان مصدرها جهة الشرق. حمل الريح الصرخات إليه؛ وصدمتْه كإعصار.

ارتعش. ناظراً بعينيه بحدّة سهمين إلى اليسار، لمح تشكيلاً أزرق – جمرةً شيطانية – وحشاً متّشحاً بالسواد.

لكنها تلاشت.

خيّم صمت مطبق. ليست هناك حتى نبضة قلب واحدة.

هل كان ميتاً؟

بعد وقت طويل إلى حد ما رصد ثعلبة في نفس المكان كما من قبل. بدت أصغر حجماً، وكل حركة نمت عنها كانت تشير إلى حذرها الشديد، وإلى احتراسها ومكرها. كان سلوكها مختلفاً عن سلوك سابقتها – إذ لم تفه بأيّ صوت.

بعد أن قامت بعرضها المتباهي أمام الرجل توارت عن الأنظار. صارع الرجل التثاؤب الذي سلك طريقه إلى فمه. ثم انتبه أن هناك حركة خافتة أمامه؛ شكلٌ شبيهٌ بثعلب تجلّى لناظريه في ظلام الليل. غزلتْ على قائمتيها الخلفيتين، كأنها متحررة من سطوة الأرض، والتفّت على نفسها كإنكليسٍ في نهر.

كائن رابع غير مرئي في الظلام أطلق زعيقاً من مكان ما في الليل: "آركخ، آركخ".

تمالك الرجلُ أعصابه. الثعالب الزرقاء نادرة في هذا الجزء من البلاد بحيث أن العثور على واحد فقط يُعَدُّ على قدر من الأهمية الإخبارية. هناك الثعالب السوداء، المستحية، الراقصة والنبّاحة. لا شيء سواها.

"إنها جميعاً الثعلب نفسه، كلها الثعلب نفسه. إنها جميعاً الثعلب نفسه، كلها الثعلب نفسه. إنها جميعاً الثعلب نفسه، كلها الثعلب نفسه..".

ردد الكلمات نفسها مرة بعد مرة كمن يتلمس طريق الخروج من حلم مروِّع، مطلقاً صرخة في قرارة ذهنه. استجمع قواه في النهاية، وحين انهمرت الدموع من عينيه لاحظ أن الثعلبة كانت لا تزال في مكانها.

هو أيضاً لم يحرك ساكناً.

بدأت الثلوج تتساقط.

هطلتْ.

الثعالب الزرقاء والحجارة تتشابه بدقة، الأمر الذي يُعدُّ مدعاةً للدهشة؛ فهي تستلقي إلى جوار تلك الحجارة في الشتاء حتى يفقد المرء كلَّ أمل بالتفريق بينها وبين الصخور؛ إنها تتفوّق بالفعل في قدرتها على التمويه على الثعالب على الثعالب البيض التي لا بد وأن تخلّف دائماً ظلاً ما أو أن تلوح بمسحة مُصفرّة وسط الثلوج.

ثعلبة زرقاء ما تتراص بإحكام إلى حَجَرِها، تاركةً للثلج أن يندلف عليها كيفما اتفق مدفوعاً بالريح. تدير وركيها للطقس، تلتفّ على نفسها وتدسُّ أنفها تحت فخذها، مسدلةً جفنيها حتى بالكاد يمكن تبيّن بؤبؤي عينيها. وهكذا، يتحتم عليها أن تبقي نظرها مثبّتاً على الرجل الذي، لثماني عشرة ساعة خلت، لم يغادر مكانه منذ أن اتخذ له ساتراً من الثلج تحت عتبة ناتئة، هنا في أعالي منحدرات آوشهايمَر. فقد انجرفت الثلوج وراحت تتساقط فوقه حتى بات شبيهاً بحدبةٍ تكوّنت جراء انهيار حائط.

عليها، هي الكائن البريِ، أن تلتزم الحيطة، فلا تغفل عن حقيقة أن ذلك الرجل ليس إلا صياد.

أغلقت الثعلبة عينيها الرماديتين. عندما فتحتهما ثانيةً لم يكن هناك أثر للرجل.

رفعت رأسها.

أما القس بلدور سكوغسون فضغط على الزناد.

II

(8 – 9 كانون الثاني/ يناير 1883)

يفتح العالم عينه الناعسة شيئاً فشيئاً كشق. يتجشأ طائر ترمجان. جداول هزيلة تدلف تحت مستوى سطح الجليد الأملس، تحلم بمجيء الربيع كي تتضخّم إلى قوةٍ عظمى مهدِّدة للحياة. دخان يتجعّد صاعداً من أكوام الثلج المبعثرة هنا وهناك في أنحاء الجبل - تلك هي مَزارع السكان.

هنا، بعيداً عن البريق المتلألئ فوق القمم، كلّ شيء يكتسي حلةً زرقاء. إنه الشتاء في وادي دالور.

"مرحباً. لقد أتيت إلى هنا كي آخذ (جثة الحصاة)، اسمع، أنا هنا كي أصطحب (حافة الفتاتْ)، أوه، إر، لا، إر، أنت، لا، أعطِني (أنثى الحفاة).."

في الحظيرة في بْرِكّا يقف حصان يعتليه رجل. ذلك هو الرجل الذي يهذي لنفسه. شخص ضخم، على الأرجح في الأربعين، لحيته الوردية غير المشذّبة لا تخلو من شيبٍ، وهي تتدلى فوق فمه قبل أن تندلق من ذقنه كشلالٍ يحدّه الجليد من الجانبين. وهو محزّم داخل صرّةٍ من الثياب كطفلٍ جاهز لتمضية يومه في الثلج.

بنطاله المشدود مرتفع فوق مستوى خصره، مربوطٌ عند تشعّب ساقيه، ومعطفه إما كبير جداً أو صغير للغاية بحسب موضع الناظر إليه، أمّا قبعته المحبوكة فمربوطة بصورةٍ محكمة تحت مستوى حنكه، وليدرك المرء أنه لم يقم بذلك بنفسه؛ تغلّف يديه ثلاثة أزواج من القفازات، ما يجعل الإمساك بخصر الفرس الصغير الذي يعتليه مستحيلاً.

إنها الفرس روزا. تلوك لقمتها بصبرٍ يكاد ينفذ. وصلا معاً هنا بفضل قوائمها. وإذا ألقيت نظرة إلى الخلف فسترى آثار أقدامها منتشرة من بيت القس في دالبوتن، ونزولاً عبر الحقول، بمحاذاة النهر، عبر المستنقعات، ثم صعوداً فوق المنحدرات، وصولاً إلى حيث تقف الآن، منتظرةً أن تُعفى من عبء حمولتها.

آه، بمشقة ينزل الرجل الآن عن ظهرها.

إنه ذو ركبتين منخفضتين بصورة استثنائية، كرشه ضخم، عريضُ

المنكبين، وعنقه طويل بشكل غير طبيعي، أما ذراعه اليسرى فأقصر بعض الشيء من اليمنى. يضرب الأرض بقدميه، يخبط ذراعيه بجسمه، يرجّ رأسه ويقذف في الهواء شخيراً.

تنقف الفرس أذنيها.

"(بذر الجباة؟)"

يكشط الثلج عن باب المزرعة بذراعه القصيرة والثخينة:

"هل هذا ممكن؟"

يطرق الباب بيده السليمة ويشعر بالدماء تندفع باتجاه قبضته. الجو بارد. قد يُدعى ربما إلى الداخل؟

يظهر ظلّ رأسٍ من خلال النقوش الجليدية على نافذة غرفة الجلوس، بعد لحظة يُسمَعُ الباب الداخلي وهو يُفتح، يليه باب الواجهة الذي يُدفع إلى الخارج بصعوبة فيزيل في طريقه الكومة التي تجمّعتْ خارجاً خلال الليل. الزائر البردان، متراجعاً أمامها، يقع إلى الوراء أو كان سيفعل ذلك لو سمح له الثلج بذلك. ما إن ينتهي من سقطته يرى أنّ الرجل الذي جاء خصيصاً من أجله كان واقفاً في الباب: فريدريك ب. فريديونسون، جامع الأعشاب، المُزارع من برْكّا، أو الشخص الذي يمتلك أبًا. أما اسم الزائر فهو هافدان أتالسون، "المعاق التابع للقسّ بالدور".

يبتلع ريقه الآن كسمكة دون أن ينبس ببنت شفة. يدعوه فريدريك العشبي للدخول حتى قبل أن يتمكن من تسميع دورِه.

لا يجد المعاق إلاّ أن يفعل ما طُلِبَ منه.

يدخلان المطبخ.

"اخلع عنك هذه الأشياء".

يقرفص فريدريك، يفتح بطن فرن من البلاطات ويضع فيه ما يضرم

النار. يتولد توهّجٌ مَرِح.

المكان دافئ هنا. جيد أن يكون المرء في هذا المكان.

يعض المعاق إبهاميه ويسحب قفازيه بقوة قبل أن يبدأ بمغالبة عقدة في حبال قبعته بيديه المرتعشتين. إنه يواجه صعوبة في ذلك، غير أنّ مضيفه يحرّره من سجنه هذا. عندما يسحب فريدريك المعطف عن زائره تنبعث رائحة نتنة واخزة. يتراجع فريدريك إلى الخلف ومنخراه مضطرمان.

"قهوة.."

لطالما كان الأمر على هذا المنوال مع قوم دالبوتن؛ الناس يتعرّقون قهوة. القس بالدور كان من اللؤم بحيث لم يقدّم لهم شيئاً يأكلوه، بل ابتزّهم منذ ساعات الصباح الأولى وحتى الليل ليكتسوا بسخامٍ أسود، حاملين حتى النخاع عبء مزارع البنّ. يمسك فريدريك بحزمٍ بيدي هافدان، الرجفة التي تدفع يديه إلى الاهتزاز ليس مردّها البرد وإنّما خللٌ في الأعصاب – نتيجة استهلاكه للقهوة.

يُفلت كفّيَّ الرجل ويحضه على الجلوس. يتناول غلاّية عن المشجب، يملأها بثلج ذائب ثم يدعها تستقر فوق صفيح التسخين أعلى الفرن. يشير إلى الغَلاية ويقول بنبرةٍ صارمة:

"الآن، عليك أن تنتبه إلى الماء؛ عندما يتحرك الغطاء تأتي وتخبرني. سأكون في الردهة، إذ عليّ تثبيت غطاء النعش بالمسامير".

يهزّ المعاق رأسه موافقاً ثم ينقل عينيه مباشرة نحو الغلاّية. يد فريدريك العشبي تفرك برفق كتف الرجل قبل أن يغادر المطبخ. بعد لحظةٍ يتناهى إلى مسامعه صوتُ مطرقة آتٍ من الغرفة التالية.

المعاق يحدِّق في اتجاه الغَلاية والفرن أيضاً، لكنّ الفرن يشدّ انتباهه أكثر. إنه أحد أعاجيب التكنولوجيا الذائعة الصيت، ولم تتسنَّ رؤيته إلاّ

لقلّة من البشر. الأنبوب المعدني يمتدّ مرتفعاً من الفرن قبل أن يتابع طريقه بمحاذاة الحائط إلى الردهة، ومن ثم صعوداً إلى حجرة النوم في الدور العلوي، مدفئاً المنزل، ليبرز بعد ذلك إلى الخارج من خلال السقف المكسو بالأعشاب، ناشراً الدخان في الهواء الطلق. لكن قبل كل شيء، هناك البلاطات الخزفية الآسرة المدهونة باليد: زهورٌ بألوان زاهية تتمدّد هنا وهناك حول هيكل الفرن بتصميم رشيق تعجز العين عن حفظه غيباً. يتهدهد هافدان في مقعده بينما يتقفى زهرة مدهونة بالرشّ تلتف تحت زهرة ثانية هنا وأخرى هناك، وهي في طريقها نحو موضع الغلاية وصفيح التسخين.

الغلاّية، نعم، بالضبط، يبقي عينه عليها. يصطق الماء نفسه بين قعر الغلاية وصفيح التسخين المتوهّج.

فريدريك جامع الأعشاب هو الرجل الذي يملك أبا؛ أي هافديس يونسدوتير، حبيبة قلب هافدان. فريدريك وأبّا يعيشان معاً، بمفردهما، في بركّا – فهي لن ترافق هافدان إلاّ بعد أن تقترن به. لكن، أين عساها تكون اليوم؟ يلوي عنقه الممطوطة ليجيل بصره في البيت من فوق كتفه اليمنى.

في الردهة، ينتهي فريدريك من تثبيت آخر مسمار في غطاء النعش. يناديه هافدان:

"إنّ ... ني هنا كي آخ ... آخذ (جثة الفتاة).."

الصياغة الكثيبة تردّ فريدريك إلى الوراء. إنه القس بالدور متكلماً من خلال خادمه. خُدّام بيت القس قلّدوا أسلوب نطق القس نفسه كما لو أنهم حزمة من الدجاج. لا شك أن الأمر يثير الضحك، فكلهم متشابهون، بشعون للغاية وحقراء.

"أعرف يا هافدان، أيها الفتى العجوز، أعرف.."

لكنه سوف يصعق ممّا سيتفوّه به المعاق بعد ذلك مباشرة:

"أيـ ... أين أ ... أبًا الـ ... التي لي؟"

الماء يغلي وغطاء الغلاية يهتز – يطقطق إلى حدٍّ ما عند الحواف.

"غلـ ... غليان" يشخر هافدان، وهذا أول ما يتفوه به منذ أن أخبره فريدريك – العشبي أنَّ حبيبته آبّا قد توفيت، وأنها هي الفتاة الجثة التي أوكل إليه القس أمر إحضارها، وأنّ النعش الذي رآه هذا اليوم على طاولة الردهة سيُنزَل تحت الأرض في مدفن الكنيسة في دالبوتِن. سحقت هذه الأخبار قلب هافدان بحيث انفجر في نوبة متشنّجة من البكاء الصامت المرير، وقد انهمرتْ الدموع من عينيه وأنفه، بينما راح جسده غير المألوف في تكوينه يرتجّ على الكرسي كورقة شجر ترتعش منذرة بقدوم عاصفة خريفية، غير عارفة إن كانت ستُنتزَع عن الغصن الرئيسي الذي ربّاها طيلة فترة الصيف، أو ستُبطأً حركتها رويداً رويداً – فتذبل، ومصيرها في الحالتين لا تحسد عليه.

فيما أصيب الرجل بالغم حزناً على فقيدته، جاءه فريدريك بمستلزمات صب الشاي: قِدْر خزفي إنكليزي مصنوع يدوياً، فنجانين من البورسالين بلون العظم الأبيض، وصحنين، إبريق حليب مطلي بالفضة وزبدية سكر، ملاعق صغيرة ومصفاة من ورق الخيزران. وأخيراً، علبة شاي صغيرة مصنوعة من نبات البلوط المزيّت، عليها علامة: "A.C. Perch's TheHandel".

يرفع الغلاية عن الصفيح ويسكب قليلاً من الماء في وعاء الشاي، تاركاً إياه يستقر برهة ما يسمح بتسخين الخزف. ثم يفتح العلبة، يكيل أربع ملاعق من أوراق الشاي في الوعاء ويضيف الماء المغلي فوقها. عبير

دارجيلينغ المُسكر يملأ المطبخ، كأنه بخار يتصاعد من أرض حُرِثَتْ حديثاً، لكنه أيضاً يأتي بإشارة عذبة، حبلى بالشبق وبذكريات عن سعة عيشٍ تدور في خلد واحدِ منهما فقط: فريدريك ب. فريديونسون، جامعُ الأعشاب من بْرِكّا، بملابسه الأوروبية، ببنطال طويل ومعطف، وربطة عنق بيرونية جديدة حول عنقه.

الرائحة كذلك ترفع من روح هافدان المعنوية، تساعده على نسيان مصابه الأليم.

"مـ ... ما اسم هـ ... هذا الشيء؟"

"شاي".

يصب فريدريك الشاي في كِلَي الكوبين ويُهبِطُ غطاء حفظ الحرارة فوق قدر الخزف الإنكليزي. يتناول هافدان كوباً بكلتي يديه، يقرِّبه إلى شفتيه ويرتشف رشفة.

"شاي؟"

من الغرابة بمكان أن تحمل قطرة مؤنسة كهذه اسماً ضئيلاً كهذا. يجب أن يُطلقوا عليها اسم إيلوستريريت تيدِنْدِه، فهو أروع الأسماء التي يعرفها المعاق:

"هـ ... هل هو دنماركي؟"

"لا، إنه من جبل في الهيمالايا، وهو شديد الارتفاع حتى إنك لو تسلقت جبلنا هذا ثلاث عشرة مرة فلن تكون قد بلغت القمة بعد. عند نصف المنحدر في ذلك الجبل العظيم تقع أبرشية دارجيلينغ. وما إن تطلق عصافير دارجيلينغ زقزقتها في جوقة الفجر حتى يتسارع إيقاع الحياة في المسارات التي تربط حديقة الشاي بالقرى: إنهم قاطفو الشاي متّجهون إلى عملهم، وقد تراهم يرتدون ثياباً فقيرة، غير أنّ بعضهم يضع

أقراطاً من الفضة في أنوفهم".

"هل العصافير المزقزقة طيور سماني؟" يسأل المعاق.

"لا، إنها عصافير الدوري، وتحت الطبقة الشفافة لغنائها يمكنك أن تسمع قرع نقار الخشب".

"أ... أليست هناك عصافير أعرفها؟"

"أعتقد أنّ هناك طائر الذعرة"، يجيب فريدريك.

يهزّ هافدان برأسه ويرشف الشاي، بينما يفتل فريدريك الجهة اليسرى من شاربه إلى الأعلى ويكمل سرد حكايته:

"عند بوابة الحديقة يتناول كلٌّ منهم سلته ليبدأ العمل. من تلك اللحظة وحتى يحين موعد العشاء ينشغل الحصّادون بقطف الأوراق الأكثر علواً من كلّ نبتة، ورؤوس أصابعهم تصبح أوّل محطة لتلك الأوراق في رحلتها الطويلة التي قد تنتهي، مثلاً، داخل إبريق شاي هنا في بِرْكّا".

هكذا قُيّض لساعة الصباح تلك أن تمضي.

في رابعة النهار خرج فريدريك والمعاق هافدان من بيت المزرعة يفصل بينهما نعش. حملاه بسهولة مطلقة؛ فالمرأة المتوفاة ليست كبيرة الحجم، والنعش يخلو من أيّ زخرفة فنية، والمرأة والنعش قد جُمِعا معاً بفضل بقايا خشب الأشجار المنتشرة حول المزرعة، وقد أدّت هذه مهمتها بصورة مقبولة. كانت الفرس روزا تنتظر في الفناء، متخمةً بالتبن. يضع الرجلان النعش على زلاجة، يربطانه من الأسفل بإحكام، ثم يركّزان جهتيه بسرج الفرس المجهّز بعارضتين طويلتين تمتدان على جانبي الحصان، مشدودتين بحزم إلى الزلاجة.

بعد أن ينجزا الامر يتناول فريدريك مغلّفاً من معطفه، يبرزه أمام هافدان قائلاً:

"عليك تسليم هذه الرسالة إلى القس بالدور فور انتهاء الجنازة. إذا ما سألك عنه قبل ذلك قل له إنني نسيت إعطاءك إياه. سيكون عليك في هذه الحالة أن تتذكّره بعد أن ينتهي من مراسم الجنازة".

يدفع بالمغلّف عميقاً في جيب المعاق، مربتاً على الجيب بقوة:

"مباشرة بعد انتهاء الجنازة.."

يودعان بعضهما بعضاً، الرجل الذي كان يمتلك أبّا والرجل الذي أبّا حبيبته – حبيبته السابقة.

***

بركّا في وادي دالور، 8 كانون الثاني/ يناير 1883

الأب بالدور سكوغّسون العزيز:

مرفق ما مجموعه ثلاثة وأربعون كروناً. إنها تكاليف جنازة المرأة هافديس يونسدوتير، بما في ذلك أتعابك وأتعاب ستة من حمّالي النعوش، أجرة عربة نقل النعش من المزرعة إلى الكنيسة، ضريبة الولاية، وكلفة قرع أجراس الجنازة ثلاث مرات، وثمن القهوة والسكر والخبز الذي تحتاجه أنت وحاملو النعش، كما أتعاب المشيّعين في حال حضر أحد منهم.

لا أصرّ على إنشاد أيٍّ من التراتيل فوق جثمان المرأة، ولا إلقاء خطبة أو عظة حول السلف الصالح. أترك لك أن تستَرشَدَ إما بذائقتك وميولك أو بالرعيّة.

ولقد جهزتُ النعش والكفن بنفسي، كَوني على دراية بهذا الشأن منذ أيام الدراسة في كوبنهاغن، وشقيقك فالديمار يشهد على ما أقول.

آملاً أن نكون بذلك قد أوفينا هافديس يونسدوتير حقها باحترام جنازتها وتوفير كل ما تستلزمه من خدمات.

وتفضل بقبول أخلص عبارات الاحترام.

فريدريك ب. فريديونسون

ملحوظة: راودتني في حلم الليلة الفائتة ثعلبة زرقاء. كانت تعدو فوق ركام المنحدرات، متجهة إلى الوادي. كانت سمينة كالزبدة، بفرو سماكته بحد ذاته لأعجوبية.

ف.ب.ف

***

الآن، موكب الجنازة الخرقاء لا ينقصه أيُّ شيء. ينطلق من فناء بيت المزرعة، ويمكن القول إنه ينزلق بتعجّلٍ فوق المنحدرات، إلى أن يقوم رجل وحصان وجثة باستعادة سيطرتهم عليه بمحاذاة النهر، على الضفة. من هناك، لا خيار للمرء سوى أن يتزلج صعوداً من الوادي حتى يصل إلى أبواب الكنيسة في بوتن.

العشبي فريدريك يدلف إلى منزله. كلّ أمله ألاّ يفتح هافدان، المعاق، وهذا ما هو عليه، النعش ليسترقّ النظر إلى ما في داخله أثناء الرحلة.



يوم الأحد في 18 نيسان 1868 جنحت قبالة أونغلابروتسنيف في شبه جزيرة ريكيانِس سفينة شحن عملاقة من ثلاث طبقات ذات ثلاث سَوَارٍ ومكسوة بطلاء القير الأسود. كانت السارية الثالثة فيها محطمة، ما يعني أنّ أفراد الطاقم قد أفلحوا، بهذه الطريقة، في إنقاذ أنفسهم، وقد تُرِكت السفينة لتتدبّر مصيرها بنفسها، أو لعلّ ذلك محض تخمين وحسب. لكنّ كلّ ما وُجِدَ على متن تلك السفينة الضخمة كان من الفخامة بحيث تُدهَشُ له العين، ومن لم يتسنّ له رؤية ذلك بأمّ عينه كان سيصعب عليه تصديق ما قد يتمّ تناقله.

كانت حجرة الطبقة العليا فيها من الرحابة بحيث يمكنها استضافة قرية بكاملها. بدا واضحاً للعيان أنّ الحجرة قد صُمِّمت أساساً بمعايير فاخرة، غير أنّ ورق الذهب وطبقة الدهان قد تمزّقت لاحقاً، لتترك مسحة من البؤس أثرها على كلّ شيء. وقد قُسّمت لاحقاً إلى مقصورات أصغر حجماً، لكنّ الحواجز بينها قد أزيلت الآن، والأسرّة الحقيرة تتبعثر هنا وهناك. ولئن يجوز تشبيهها بسفينة أشباح، فلأن رائحة بول كانت تفتك بأرجائها. لم تكن لها أشرعة، أما كلّ ما عُثر عليه من خرق وحبال فقد كان مضمّخاً بالعفونة.

عمود المقدمة كان مكسوراً، وبان تمثال بحالة مزرية في جبهة السفينة، كان تصويراً لملكة ما، غير أن سحنتها وثدييها كانت مخدوشة برأس سكين مستدق: واضح أنّ السفينة كانت في زمن ما موضع فخر قائدها، قبل أن تسقط في قبضة أوغاد عديمي الضمير.

من الصعب تحديد المدة التي ظلت خلالها السفينة في البحر قبل أن تلتقي مصيرها المشؤوم، إذ لم يعثر فيها على دفتر سجّلات، أما اسمها فقد طُمِسَ، سواء في المقدمة أم في المؤخرة؛ في جانبٍ ما منها كان يمكن تبيُّنُ أحرف "دِرّ دِكّ"، وفي جانبٍ آخر "ف.. ر.. إك"، الأمر الذي حمل على الاعتقاد بأنها ذات أصولٍ دنماركية.

عندما جنحت هذه السفينة الهائلة كان زبد الأمواج يصل إلى شاطئ البحر غليظاً هائجاً، لذا فإنّ أيّ محاولة لإنقاذها كانت غير واردة. لكن ما إن طفتْ فرصةٌ على السطح حتى سارع رجال سودورنِس بالتوافد على متنها لمعاينتها بشكلٍ جديّ. دخلوا إلى السطح العلوي ليكتشفوا – وقد أثار الأمر بهجتهم – أنّ السفينة كانت محمّلة بالكامل بزيت كبد السمك. كان الزيت مخزّناً في براميل متماثلة الحجم، موضّبة في صفوف ومثبتة جيداً بأحزمة، ما دعاهم إلى الإرسال لسبع أبرشيات كي يأتوا بعتلات لفكّ وثاقها، وقد نفع الأمر.

بعد ثلاثة أسابيع من العمل نجح الرجال في إفراغ الطبقة العليا من سفينة الشحن من الحمولة ونقلها إلى الشاطئ، وقد بلغ عدد براميل زيت كبد السمك تسعمائة برميل.

التجارب التي أجريت على الزيت أثبتت أنه وقود إنارة ممتاز، لكنه لم يكن يشبه أيّاً مما عرفه الناس من قبل، لا رائحة ولا مذاقاً؛ وربما فقط اشتماله على إشاراتٍ ضعيفة أوحت بأنّ اشتعاله يبعث معه رائحة شَعر بشري يحترق. أصحاب الألسن الخبيثة في أنحاء أخرى من البلاد تحدثوا بأنّ الزيت هو صراحةً "شحم بشري"، لكنّ تشهيرهم هذا وحسدهم احتفظوا به لأنفسهم وحدهم – فلا شيء كان لينتقص من الفرحة العارمة التي شاعت في الجنوب الغربي بسبب هذا الكسب المفاجئ الذي بعث

به الله تعالى إلى شاطئهم من غير أن يعلموا، وفقط ببذلهم القليل من الجهد ودون أيّ خسارة للأرواح أو النفقات.

كسروا باب الطبقة الوسطى للسفينة، التي لم تكن تحتوي براميل أقلّ مما عُثر عليه في الطبقة العليا؛ وعلى الرغم من أنّ عملية التفريغ قد أُنجِزَتْ بحماسةٍ رجولية، لم تدلّ ملامحهم على أيّ انطباع غير عادي. لكنهم في أحدٍ الأيام أدركوا أنّ ثمة حياة على متن السفينة؛ فقد تحرّك شيء في الزاوية المعتمة لكوثل السفينة – جهة النافذة، والتي يمكن الوصول إليها عبر سلّم ممتدد بين قشرة السفينة وصفوف البراميل الثلاثية. حيث صدر صوت تَنهّد وأنين، مرفقاً بقعقعةٍ على معدن.

كانت أصوات غريبة ملأتْ الرجال ريبةً. تطوع ثلاثة شجعان منهم للدخول في قلب الظلام ورؤية ما ضُمِرَ لهم هناك. لكن ما إن استعدّوا للانقضاض على ذلك الخطر المباغت حتى بان لهم كائنٌ بائس يزحف شاقاً طريقه من تحت البراميل المكدّسة. كانوا على وشك أن ينهالوا عليه بالطعنات ويمزقوه إرباً بعتلاتهم، غير أنّ ما مثل أمام أعينهم كان يبعث على الصدمة.

لم يكن الكائن الغريب سوى فتاة بالغة. شعرها الفحمي كان يتدلّى كنباتٍ بريٍّ عن رأسها، وكان جلدها متورماً تملأه التقرحات والقذارة، أما عريها فلم يكن يحجبه عن الأعين سوى كيس ممزّق كريه الرائحة. رسغ قدمها اليسرى كان محاطاً بقيد حديدي موصول بسلسلةٍ تنتهي عند أحد أكبر الدعامات الخشبية للسفينة، و لم يكن من الصعب تخمين ما فعله الطاقم بها، بالنظر إلى سريرها التعيس الهيئة. وكانت معها صرّةٌ التصقت بها كما يلتصق الإنسان برذيلةٍ ما، و لم تكن لتتخلى عنها.

"أبا.." قالت بفراغ شديد بعثَ قشعريرة في أبدانهم، لكنها لم تقدّم عن نفسها ما يزيد على هذا، على الرغم من الأسئلة المستجوبة التي وُجّهت إليها. فهم المنقذون أنها بسيطة العقل، بل ذهب بعضهم إلى القول إنّ هيئتها تشير إلى أنها حامل. نقلوا الفتاة مع صرّتها إلى الشاطئ، وتسلّمتْها بعد ذلك زوجة العمدة. هناك قُدّمَ لها الطعام ومُنحت سريراً كي تنام فيه ليلتين قبل أن يؤتى لها بملابس جديدة وترسل إلى ركيافيك.

كان طاقم الإنقاذ لا يزال يعمل لثالث يوم أحدٍ على التوالي من شهر حزيران عندما اقتربت سفينة بريد من خليج ركيانِس. حين عبرت بمحاذاة حطام سفينة الزيت احتشد الركّاب على درابزين الدرج ليلقوا نظرة على ذلك الجسم الضخم الذي تقطّعت به السبل في الخليج.

توقف حمّالو الزيت برهةً عن العمل ليلوّحوا لأولئك الركاب الذين بدورهم ردّوا التحيةَ ملوّحين مشوَّشي الأبصار، فقد خرجوا للتو من طقس رديء استمرّ ثلاثة أيام شمال جزر الفارو.

بين أولئك الركاب كان هناك رجل يافع طويل القامة، يضع على كتفيه بطانية من الصوف عليها مربّعات داكنة، وقد استقرت قبعة لاعب بولينغ رمادية اللون على رأسه، وفي فمه غليون بعنق طويل.

لم يكن ذلك الرجل سوى فريدريك ب. فريديونسون.

يملأ العشبي فريدريك غليونه ويتأمل الصرّة التي استقرّت على طاولة الردهة حيث كان النعش قبل ساعة من الآن. كانت الصرّة ملفوفة بقماش أسود ومحزومة بحبل مجدول من ثلاثة أوتار - وكانت بحالة جيدة على الرغم من أنّ يداً لم تلمسها منذ سبع عشرة سنة - وترتفع عن الأرض حوالي ستة عشر إنشاً، بطول اثني عشر إنشاً وعرض عشرة إنشات بالضبط. أمسك فريدريك الصرّة بقوة، رفعها إلى مستوى رأسه ثم خضّها قريباً من أذنه. بدت محتوياتها ثابتة، بوزن يقارب العشرة باوندات. لم تصدر عنها خشخشة. ليس أكثر مما هي عليه إلى الآن.

أرجعها فريدريك إلى الطاولة وذهب إلى المطبخ. أقحم عود كبريت في الفرن ثم نقل اللهب إلى غليونه، مشعلاً إياه بمجّات بطيئة ومدروسة. فرقع التبغ. سحب عميقاً إلى رئتيه الجرعة الأولى من الدخان لهذا اليوم، نافثاً زفراتٍ نحو الهواء الضعيف، معلناً:

"أومفَ ينتمي لأبّا".

لـ"أومف" غير معنى في لغة أبّا: صندوق، صدر، علبة جواهر، تابوت أو حقيبة كبيرة، على سبيل المثال.

لطالما ساورت فريدريك الشكوك حول ما تحتويه الصرّة - وقد استطاع معالجتها - لكنه اليوم فقط سيشبع فضوله.

***

تقاطع مسار حياة فريدريك بحياة هافديس بعد ثلاثة أيام فقط على

وصوله آيسلندا. كان في طريقه إلى بيته آتياً من حفلة خطوبة، جلسة شرب قهوة ضخمة وتأدية أغنيات في منزل معلّمه السابق، السيد جـــ. سلّم أمر طريقه لساقَيه، وقد حملتاه برشاقة من كفوسِن، خارج البلدة، ومن ثم جنوباً عبر أرض صخرية، ونزولاً إلى البحر حيث ركض على طول شاطئ المحيط، هادراً بأعلى صوته للمتألق اللامتناهي أمامه:

"بايعتُك أيها المحيط، أنت يا مرآة كلّ حُرّ!"

كان منتصف ليلة صيف. وتأرجحت حشرات متشبثة بسويقات نباتات، وصفّر قطقاطٌ صغير مزيّن بطوق أسود في عنقه، أما أشعة شمس منتصف الليل فقد تكفّلتْ بتقليم الأعشاب.

في تلك الأيام كانت العاصمة من الصغر بحيث يمكن لرجلٍ مشّاء أن يدور حولها بنصف ساعة فقط، وقد كان فريدريك على وشك العودة إلى حيث بدأت نزعته الليلية – على طريقٍ يقع خلف منزل معلّمه العجوز الأشيب، السيد جـ. خرج ابن الطبّاخة من الباب الخلفي، حريصاً على ألاّ تسقط من يديه صينيةٌ يحملها وفوقها استقرّت كأس من القصدير وقشور بطاطا وجلد سمكة ترويت وقطعة كبيرة من الخبز؛ هي فضلات الحفل الذي جرى في وقت سابق من المساء.

تسمّر فريدريك في مكانه وهو يشاهد الولد يتجه بحمولته إلى زريبة متهالكة تلتصق بمبنى خارجي أكبر بقليل في الباحة الخلفية للمنزل. هناك، فتح الولد بويباً وأودع الصينية في الداخل. من امتداد ذاك المبنى تناهى إلى سمعه صوت هرولة وشخير وصخب ونخير. انتزع الولد يده، صافقاً البويب وسارع بالابتعاد، مرتطماً بفريدريك الذي كان قد اجتاز البوابة.

"ماذا لديك في الداخل، رجل أعمال من الدنمارك؟"

قالها بنبرة فيها من الجد بقدر ما فيها من السخرية، لتخفيف حدتها.
فغر الولد فاهه أمام فريدريك وكأنّ هذا الرجل واحد من رجال القمر في قصص البارون مونشهاوزن، ثم أجاب بكدر:
"أوه، أعرف إنها تلك المرأة العاهرة التي أجهضتْ طفلها الأسبوع الفائت".
"ما الذي تقوله؟"
"نعم، لقد أُخذَتْ من المقبرة، حيث يقال إنها قد دَفَنَتْ جثة طفلها الميت داخل قبر "التلميذ" أُوْلافور يُوْنسون".
"ولماذا هي الآن في الداخل؟"
"أفكر أنّ مساعد المأمور قد طلب إلى قريته الاعتناء بها. تقول أمي إنهم بالكاد استطاعوا إيداعها السجن مع رجال آخرين".
"وما الذي ستفعلونه بها؟"
"أوه، أفكر أنها ستُرسل إلى كوبنهاغن كي تنال عقابها المناسب، وبعد أن تعود إلى هنا سيبيعونها بأبخس الأثمان. هذا إن عادت".
مسح الولد ما حوله بنظرة خاطفة مباغتة كالسهم، وسحب من جيبه قرناً صغيراً للشمّ.
"على أيّ حال، لا يفترض بي أن أبوح بما يدور في المنزل..."
رفع القرن إلى منخره وتنشّق بكلّ ما أوتي من قوة. بهذه الحركة كانت المحادثة قد انتهت. وبينما كان ابن الطباخة يصارع ضد عطسة توجّه فريدريك نحو الكوخ. مقرفصاً، سحب غطاء الفتحة وحدّق بإمعان في الداخل. كانت الرؤية معتمة لكنّ الليل الصيفي كان يصبّ ضوءاً أزرق، عبر ألواح السطح، كافياً لتعتاد عيناه الظلمة وتميّزا صورة امرأةٍ في الزاوية. إنها السجينة.

كانت تجلس على الأرض الترابية وقد امتدت ساقاها أمامها، منحنيةً على الصينية كدميةٍ بالية. تناولت بإحدى يديها الصغيرتين شريطاً من قشر البطاطا استخدمته لتدفع بجلد السمك والخبز، قبل أن تعود فتنتشلها، ترفعها إلى فمها وتمضغها وكأنّ وعيها قد أُوقِظَ فجأة. أخذت رشفةً من كوب القصدير وتنهّدت. في تلك اللحظة شعر فريدريك أنه قد عرف أكثر ممّا يجب حول هذا المخلوق البائس. حاول البحث عن الغطاء لإغلاق الباب الصغير، خابطاً يدَه بالجدار، مولّداً ضربات صاخبة. حتى أنّ الشكل البشري في الزاوية تنبّه لوجوده. حدقت في عينيه مباشرة، وفترت شفتاها عن ابتسامة؛ ابتسامتها تلك ضاعفت من حجم السعادة الموجودة في العالم.

لكن قبل أن يردّ بإيماءة من رأسه تلاشت الابتسامة عن وجهها واستُبدِلَتْ بقناع مأسوي، فانفجر فريدريك باكياً.

***

فكّ عقدة الحبل ولفّه حول أصبع يده اليسرى، ثم ملص اللفة ممرّراً إياها من فوق رؤوس أصابعه ودسّها في جيب صداره. فضّ قماش الصرة فظهرت رزمتان لهما الحجم نفسه، لُفّتا بورقٍ مشمّعٍ بنيّ اللون. وضع الرزمتين جنباً إلى جنب، وبدأ يفتحهما. محتويات كلٍّ منهما بدت متطابقة مع الأخرى: أقراص دواء خشبية سوداء اللون، أربع وعشرون قرصاً في كلّ رزمة. قلب الأقراص على ظهرها كأنها أوراق لعب، ولاحظ أنها كانت مطلية بالأسود من جهة وبالأبيض من الجهة الأخرى. لم تكن جميعها على هذا النحو؛ فبعض الأقراص في الرزمة الاولى كان يحمل وجهين، أسود وأخضر، بينما كان بعضها في الرزمة الأخرى يحمل

الأسود والأزرق. حكّ لحيته.

"إذن، أبّا – دي، هذا مثير للاهتمام، صورة هذه الأحجية التي حملتِها طوال حياتك..."

الآن يتكشّف مشهد غريب ومعقّد بين جدران ردهة صغيرة في بْرِكًا في وادي دالور. سيّد هذا المنزل يمسك بكلّ جزء من أجزاء الأحجية بعناية، متفحّصاً كلّ زواياها. وهناك أحرف مكتوبة على الوجوه الخضراء والزرقاء – جملة باللاتينية – تسهّل اللعبة.

يبدأ اللعب بالأحجية.

الأقراص الزرقاء أولاً.



درس فريدريك ب. فريديونسون التاريخ الطبيعي في جامعة كوبنهاغن بين عامي 1862 و1865، وكالعديد من بني جلدته لم يكمل دراسته وأمضى سنواته الثلاث الأخيرة في الدنمارك موظفاً عادياً في صيدلية إلفنت. بعد ذلك، وتحت إدارة الصيدلاني أورنستروب، عمل في متجر كونغسغايد. هناك، تدرّج فريدريك في منصبه حتى أصبح مساعداً طبياً، بين يديه قائمة المُخدّرات: إيثر، أفيون، غاز الضحك، غاريقونُ الذُّباب، بلاّدونة، كلوروفورم، يبروح، حشيش وكوكايين. ولم يكن استعمال هذه المواد مقتصراً على الهدف العلاجي، إذ كانت مفضّلة بدرجةٍ كبيرة لدى آكلي اللوتس في كوبنهاغن.

وآكلو اللوتس كانوا جماعة من الناس حذوا في عيشهم حذو الحياة، كما هي في قصائد شعراء فرنسيين كبودلير ودو نرفا وغوتييه ودو موسيه. كانوا يقيمون الحفلات - أثارت العديد من الشائعات على الرغم من قلّة عدد الذين كانوا يحضرونها - وكانت النباتات المخدِّرة تنقل الضيوف، بنعومة وبسرعة خاطفة، جسداً وروحاً، إلى مصافٍ أخرى. كان فريدريك يواظب على حضور هذه التجمعات، وذات مرة، بينما كانوا يهمّون بركوب قطار الملاهي الذي أتت به مادة الإيثر، أعلن لرفقائه الرحّالة:

"لقد أبصرت الكون بأكمله! إنه مؤلَّف من قصائدنا".

"إنه يتكلم كـ' آيسلندي حقيقي'، آيسلندي صادق" - قال الدنماركيون.

كانت رحلة العودة إلى آيسلندا صيف 1868، بما لا يقاس، أكثر من مجرد قضية ارتباط بالأرض الأم؛ فقد جاء لكي يرتّب إجراءات بيع مزرعة والديه اللذين رحلا بالتهاب رئوي ذات ربيع قبل تسع سنوات. لم تكن هناك ممتلكات بالغة قيمة تستحق الذكر: حقل صغير ناءٍ في بِركا، البقرة "قرن معقوف"، بعض النعاج الهزيلة، كمان، رقعة شطرنج، خزانة للكتب، دولاب الغزل الخاص بأمه، والقط المتلصّص "فريكي الصغير". كانت خطته تقتضي أن لا يطيل الإقامة. سيبيع المواشي لجيرانه بأسرع وقت ممكن، ويسدّد الديون، ويوضّب الأثاث، ويشنق القط ويضرم النار في مباني المزرعة المتداعية ناحية التلال، مسخّراً كلّ معرفته لإنجاز الأمر بأفضل طريقة ممكنة.

هذا بالضبط ما كان ليفعله لو لم يرمِ الكون في وجهه لغزاً غير متوقع داخل مبنى إضافيٍّ قذر في إحدى ليالِي يناير/ حزيران المشمسة.

***

تُلَعّبُ يدا فريدريك الأقراص الخشبية؛ وما يفترض كونه أحجية مبهمة يحدّد الآن وجهة أصابعه. كما لو أنّ هذا اللغز يحلّ نفسه بتعويذة سحرية؛ فدون سابق تصميم أو نيّة مدروسة يبدأ الرجل برصف قرص مقابل آخر، وما إن تتلامس الحوافّ حتى ينزلق القرص منها ليدخل أُخدودَ قرصٍ آخر ولا يعود بالإمكان زحزحته؛ وهكذا دواليك حتى تشكّل الأقراصُ الزرقاء قاعدة، بينما تكوّن الأخرى منها الجدرانَ وحدود الجملون لما يبدو أشبه بحوضٍ طويل بالغ العمق، جدرانه الداخلية بيضاء أما جدرانه الخارجية فسوداء.

أما الجملة المكتوبة في القاعدة، فقد حلّت نفسها بنفسها:

"Omnia mutantur - nihil interit". يضحك فريدريك بازدراء: "كلّ شيء يتغيّر - لا شيء يفنى". أيّ حِرَفِي ماكر ذاك الذي قدم لهافديس هذا الشيء، منتقياً من أجلها مقتطفاً لأوفيد، لا أقلّ.

يتناهى خوارٌ من الجهة الخلفية للمنزل.

يستيقظ محلّلُ الأحجية من تأملاته؛ البقرة "قرن معقوف" الثانية تحتاج من يهتم بها. يضع فريدريك الشكل أرضاً ويهرع إلى الزريبة. هو لم يعتد بعد الالتزامات المنزلية المستجدة الآن في بِرْكا، ذلك أنّ العناية بالحيوانات كانت من اهتمامات أبّا.

***

العشرون ريكسدايلر كان صَرْفُها لطلاب الجامعة مرهوناً بواجب المشي في جنازة أولئك الذين لا أصدقاء لهم من عامة الشعب. وقد أدّى فريدريك هذا الواجب الكئيب كأيّ طالب آخر، لكن بما أنّ شدّة ولعه بالكتب إلى درجة اليأس قد أغرقته بالديون لبائع الكتب "هوست"، فقد رحّب بفكرة العمل كحارس مستودع الجثث في المدينة. هناك، استطاع أن يتحصّل على عمل آخر - ترجمة مقالات طبية من دوريات أجنبية لطالب من كريستيانيا متبلّد الذهن لكن ثري، يتخصص في التشريح المرَضي.

أمضى فريدريك ليالٍ وليالٍ بجانب مصباح لا يكفّ عن نفث الدخان، ناقلاً إلى اللغة الدنماركية أحدث الوصفات الطبية لإبقاء معشر البشر البؤساء على قيد الحياة، تحيط به أسرّة نقّالة مُدِّدت عليها جثث أناس لم يحظوا بأيّ مساعدة على الرغم من الأخبار المشجّعة التي راجت مؤخراً عن إحراز تقدّمٍ في العلاج بالكهرباء.

في المجلد الثالث من "تقارير مستشفى لندن، 1866" قرأ فريدريك مقالاً حول تصنيف البُلهاء بقلم ج. لانغدون هـ. داون، وهو طبيب في لندن. كان المقال محاولة لتفسير ظاهرة حيّرتْ الناس لوقتٍ طويل: كيف يحدث أن تلد نسوة بيضاوات البشرة أطفالاً متخلّفين عقلياً لهم ملامح آسيوية؟ حدس الطبيب أنّ مرض المرأة، خلال فترة حملها أو إصابتها بصدمة، يشكّل سبباً لولادة طفلها قبل أوانه. وهو أمر يمكن أن يحدث في أيّ مرحلة موثقة جيداً من مراحل تطوّر الجنين لدى كلٍ من الحيوانات التالية: السمكة، السحلية، العصفور، الكلب، القرد، الزنجي، الإنسان الأصفر، الهندي، الإنسان الأبيض، لكنّ أغلب الحالات تشتمل على الولادة المبكرة في الشهر السابع للحمل.

إذن، أطفال متلازمة داون المنغوليون لا يتحقّق نموهم بشكل كامل، وهم يُدانون لبقائهم أطفالاً وديعين طيلة حياتهم. لكنهم، ككّل أفراد مجلس الأجناس الأدنى، يمكن أن يتعلّموا، بالملاطفة والصبر، مهارات نافعة.

في آيسلندا كانوا يقومون بإتّلافِهم لحظة ولادتهم.

وبخلاف مختلّي العقول في الأنواع الأخرى، حيث تستحيل ملاحظة السمات المختلفة للمواليد الجدد مباشرةً، فإنّ المرء لا يمكن له إلاّ أن يلاحظ أنّ طفل متلازمة داون مُكوّنٌ من مقادير مختلفة عن كلٍ منّا، بل إنّ فيه عناصر غريبة وغير اعتيادية: شعر خشن، بشرة صفراء، جسم قصير ممتلئ، جلد رخو وعينان حادّتان كشقّين في قطعة قماش.

لم يكن الأمر بحاجة إلى شهود، فقبل أن يطلق الطفل صرخته الأولى تقوم القابلة بسدّ أنفه وفمه، مُرجِعةً بذلك أنفاسه إلى قدر الأرواح الضخم الذي منه تتمّ خدمة كلّ البشر.

كان الطفل يعتبر مباشرة مولوداً ميتاً ثم يُسَلَّمُ جسده إلى أقرب كاهن؛ فيقوم هذا الأخير بالمصادقة على طبيعة المولود، ويتولّى دفن الكائن المسكين، وتنتهي القصة عند هذا الحدّ.

لكنّ بعض هؤلاء الصغار السيئي الحظ كانت تُكتب لهم النجاة. كان يحدث الأمر في أحد تلك الأماكن البائسة التي لا تطأها قدم، حيث ليس هناك مَن يزيد مِن إدراك الأمهات اللواتي كنّ يعتقدن أنّ الأطفال الآخرين سيُعِينون أطفالهنّ دون الالتفات إلى نواقصهم. بالطبع، كان أولئك الأطفال يضيعون، هائمين في جهلهم، يستحيلون عظاماً متروكة في ممّرات الجبال، أو يتحوّلون إلى أنصاف موتى في مراعي الصيف، أو ببساطة تراهم قد تعثّروا داخل حياة أناس غرباء.

ولأنّ أولئك التعساء الصغار لم يكونوا يعرفون أين هم ولا من أيّ جهة قُذفوا إلى الأنحاء الجديدة، كانت السلطات تتولّى تحديد محلّ إقامتهم في أيِّ مزرعة يحطّ رحالهم فيها.

كان المزارعون يعبّرون عن إنزعاجهم الشديد من تلك "الهِبات السماوية"، وكان أفراد الأُسَر يعتبرون أنّ مشاركتهم مخادع النوم مع شخص متخلّف عقلياً هو شأنٌ يحطّ من قدرهم.

لم يكن هناك أدنى شكّ بأنّ الفتاة المشؤومة الحظ التي حُبست في فناء قريب مساعد مأمور ركيافيك الخلفي كانت من أولئك الأبرياء الآسيويي السحنة الذين لم يكونوا يمتلكون غير النَّفَس الذي في رئاتهم.

وبعد أن مسحت الطعام عن يديها عانقت هافديس رأس الرجل الشاب الذي كان ينتحب في حجرة أفراخ الدجاج، مخفّفة عنه بالكلمات التالية:

"فورّو أمْهْ ... أمْهْ، فورّو أمْهْ ... أمْهْ...".

يغمق الشفق في الوادي؛ يبدأ الليل رحلته في فترة بعد الظهر زاحفاً على المنحدرات صعوداً. الظلام يبدو وكأنه يتدفق آتياً من قبرٍ مفتوح في الجهة الغربية لمدفن الكنيسة في بوتْن، وكأنّ الظلّ ينمو هناك أولاً قبل أن يكسو العالم بأسره بالسواد. على مقربةٍ منه ثمّة ما يظهر مضاءً: رجال أربعة يقفون في ممر باب الكنيسة حاملين نعشاً على أكتافهم، القسّ بالدور يشرف عليهم بصرامة، تتبعه عجائز شمطاوات مكتسيات بالسواد لا يسيئُهنّ في الواقع أيّ سوء لرؤية شخص ما يُنزَل إلى القبر. موكب الجنازة يتقدم متعجّلاً، وكأنه في رقص، وخطوات السائرين القصيرة سرعان ما تتشظى في أكثر من اتجاه، ذلك أنّ ممرّ مدفن الكنيسة زلقٌ كالزجاج، على الرغم من إرسال هافدان أتالسون ليشقّ السطح بينما كانوا يرتّلون فوق جثمان سيدته في الكنيسة. إنه يقف الآن في بوابة مدفن الكنيسة يقرع جرس الجنازة.

تحمل عصفة ريح الأغنية النحاسية عبر الوادي وتهبط بها في ردهة فريدريك الذي يسمع تردّدها - كلا، إنه علمه المسبق بتوقيت جنازة أبّا في هذه الساعة بالذات، وهو ما يقرع أجراساً بالغة الصغر في ذهنه.

يضع اللمسات الأخيرة على أقراص أحجية رفيقته؛ تظهر الصورة نفسها للأحجية الأخرى، باستثناء أنّ القاعدة خضراء اللون وبكتابة لاتينية مختلفة. هي أيضاً من صنيع مؤلّف "التحولات"، وترجمتها تعني: "العبء الذي يمكن تحمّله يخفّ ثقله مع مرور الوقت".

في اللحظة التي ينزل فيها الحمالون التابعون للقس بالدور النعش

إلى القبر المعتم في بوتن لا يخيّم السواد على أطراف الوادي وحسب، فالضوء يذرف نفسه فوق الرزمة التي أحضرتها هافديس يونسدوتّير إلى شمال دايل، عندما قام فريدريك ب. فريديونسون، التلميذ المفضّل لنسيب مقرَّب إلى مساعد المأمور، بتبرئتها من تهمة التخلي عن طفلها بحجة جهلها بهذه الأمور، شرط أن تبقى تحت رعايته طالما هو حيّ.

فالضوء يذرف نفسه فوق الرزمة التي أحضرتها هافديس يونسدوتّير إلى شمالي دايل، عندما قام فريدريك ب. فريديونسون، التلميذ المفضل لنسيب مقرب من مساعد المأمور، بتبرئتها من تهمة التخلي عن طفلها، بحجة جهلها بهذه الأمور، وبشرط أن تبقى تحت رعايته لطالما حييت.

أجل، ولو قُرِّبَ نصفا الأحجية من بعضهما بعضاً فسيؤلفان تابوتاً مشغولاً يدوياً بإتقان لألاءٍ بدرجة رفيعة.

***

عندما سافر فريدريك ب. فريديونسون شمالاً مع الآنسة – الخادمة ليستقرّ في عزبة والده في بْرِكّا كان يتولّى رعاية أبرشية الوادي قسٌّ محروق معروف شعبياً باسم هالسون "القس جاكوب البؤبؤ"، حيث أنه، حين كان طفلاً، اقتلع ذات مرة إحدى عينيه بشصّ صيد السمك.

هذا القس غير الكفؤ فُوِّضَ لمنصبه كونه أحد أبناء الأبرشية الفطِنين – فهو يتشاجر، يتجشأ، يضرط ويقاطع الكلام – ولم يتأثر لسماعه أبّا ترتّل، أثناء إقامته قدّاس المذبح، بصوتٍ واضحٍ وعالٍ وغير متناغم. كان قلقاً فقط من أن ينجرف قائد جوقة المرتلين في لعاب جارته. هذا المواطن، المزارع الذي اسمه غيللي سيغورغيلّلاسون، من بارناهامرَر، وُهِبَ صوتاً قوياً، وهو يغني بشكلٍ متقطع وغير منتظم، ويفغر فاهه

أقصى ما يستطيع عند النوتات المرتفعة بشكل يمكّنك من رؤية حلقه، حتى أنّ جماعة المصلّين، للتسلية، كانوا يقذفون داخل فمه مضغات تبغٍ رطبة – العديد منها كان يصيب الهدف بدقة ممتازة.

بعد أربع سنوات مات القس جاكوب؛ والرعية التاعت لفقدانه، فقد ظلّت ذكراه، كرجلٍ طيّب مع الأطفال، ماثلةً في الأذهان، على الرغم من أنه كان قبيحاً ومضجراً.

وقد خَلَفَه القس بالدور سكوغسّون، لتشهد الكنيسة في عهده وضعاً جديداً بالنسبة إلى سكان وادي دالور. فقد صار الرجال يجلسون بهدوء على المقاعد، عاقدين ألسنتهم خلال قراءة القس خطبته التبشيرية، بينما يُعامَل المشاغبون وفق رؤيته الخاصة: يستدعيهم للاجتماع بهم بعد القداس، يأخذهم إلى خلف الكنيسة ويضربهم حتى يروا نجوم الظهر. أما النساء فتحوّلن إلى قديسات منذ اليوم الأول لمجيئه، وكأنهنّ لم يقمن، ولو لمرّة واحدة، بمضايقة وإزعاج "القسّ جاكوب البؤبؤ". فلن إنّ ذلك كان ذا نفع مباشر مع المغفلين، أزواجاً كانوا أم خطباء، فقد كان يجب سحقهم منذ أمد بعيد؛ وليكن على يدّ هذا القس الأرمل العقور الذي لم يولد له ولد.

غيللي من بارناهامرر صار يرتل أعلى من ذي قبل، سريعاً كمكبس، بفم كفجوة واسعة. لكنّ فريدريك طُلِبَ إليه أن يدع أبّا في المنزل، فكلمة الله يجب أن تصل إلى أسماع المصلين "دون أن تقطعها هذيانات شخصٍ أبله"، وهو ما قاله القس بالدور بعد المرة الاولى، والوحيدة، التي حضرتْ فيها أبّا قداساً له.

لم يثنِ القس أيُّ شيء عن التحوّل عن هذا الموقف؛ فلن يعود مقبولاً أن يكون لأبّا أيّ مكان بجانب فريدريك، و لم يكن أحد من أبناء الرعية

المسحوقين ليستطيع الكلام دعماً لامرأة بسيطة سعادتها القصوى تكمن في الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد مرتديةً أجمل الثياب ومنضمةً إلى أناس آخرين في القداس.

غدا فريدريك وهافديس بعد ذلك قليلَي التعاطي مع قوم دالور، غير أنّ هافدان أتالسون دأب على زيارة هافديس بالسرّ كلما استطاع. وقد غيّرَ قس بوتن اتجاه دربه بالتفافة واسعة عندما رآهما ذات مرة على الطريق.

***

تقع كنيسة بوتن على ضفاف نهر بوتنسا. إنه نهر متوسّط الحجم، سلس التيار، بعمق مُعتَبَر وضفتين مرتفعتَين، تنتشر على جانبيه بقع إسفنجية سبخة وأراضي واسعة تستوطنها أشنّة غزيرة وتطفو عليها ألوان صدأ خادع على السطح. لكنّ الشتاء الذي يحبل بالثلوج الثقيلة يجعل النهر يجري بشراسة، مفجّراً ضفتيه بقوة شيطانية، حتى أنّ المياه الذائبة الرمادية اللون والوسخة تتدفق مندفعةً عن حافتيه، غامرةً الأشنة، مشكّلة بحيرات في أرض المقبرة، تاركةً الكنيسة على جزيرة متقطّعةً بها السبل - في وسطها تماماً. بيت الرب، الذي يغدو وسط حزام دائري من المياه، يظل معزولاً إلى أن تبتلع المقبرة ذلك الحليب الجبلي؛ فلا تطمر المياه بعدها إلاّ كاحلَي تمثال العذراء؛ ومن ثم تظلّ الأرض المقدّسة والنشوانة تتمايل تحت الأقدام حتى فترة متقدمة من الصيف.

بعد نوباتٍ من هذا القبيل في بوتسنا تفسح ضفة النهر المجال وتتفتت المقبرة في النهر. يتضح الآن أنّ الطبيعة كانت تعامل الموتى بشيءٍ من الاحترام؛ إذ يستحيل كلّ شيء عصيدةً: الأسنان والعصعص، أصابع

اليدين والقدمين، البالغون والأطفال، عظام الفكّ السفلي وفروات الرؤوس، أردافٌ هنا وحوضٌ نسائيّ هناك، إحدى فقرات الظهر تنتمي إلى هذا القرن من الزمن وبطن رجل من القرن الذي سبقه.

كلا، ليس بمقدور أحد القول إنّ "حديقة الرب" هنا في الوادي قد حُرِثَتْ؛ فالإنسان، كجارٍ، لا بد أن يتّسم بالوفاء كي يُظهِر استعداداً لزيارة جيرانه الآخرين في مثل هذه الظروف.

وهكذا، كان يوم الاثنين 8 كانون الثاني/ يناير من العام 1883 عندما أقام القس بالدور الطقوس الجنائزية أمام مجموعة ممّن اعتبرهم فريدريك العشبي على قدرٍ من القيمة بين كلّ الذين لم يأذنوا بأن ترتّل فتاة بسيطة خارج المقام مع قسّ الكنيسة: غطاء لحاف محشو بستّةٍ وستين رطلاً من روث البقر، هيكلٌ عظمي لنعجة عاجزة بسبب الشيخوخة، برميل خشبيّ فارغ لحفظ سائل مُسكِر، أضلاع متعفنة لبرميل وحوض بول منتن.

وأبّا تستحقّ لروحها زمالةً مختلفة عن تلك؛ تستحقّ تربةً أكثر عدلاً.

"شبح الشمس" هو الاسم الذي أطلقه الشعراء على القمر، وهو ملائم لهذه الليلة حيث يغمر ضوءُه الباهت أيكة الشجر في المنحدر المطلّ على بيت المزرعة في برّكا. الدغل الصغير ذاك كان صنيع يدي فريدريك وأبّا، وكان الأكثر تحبّباً إليهما. شؤون قليلة فقط في الوادي كانت تجلب لهما السلوى، كما يحدث أثناء حراثته، على الرغم من أنّ مساعيهما كلها كانت تثير سخرية وتهكّم كل من حولهما.

شجرة الغبيراء ترسم صوراً من الظلال فوق قشرة الجليد؛ وثمّة همهمةٌ خافتة في الأغصان العارية، أما الفروع غير المتجانسة فلا تزال تحمل عناقيد توت جفّت بعد أن غضّت العصافير الطرف عنها السنة الفائتة.

مجهداً، يسلك فريدريك فوق المنحدر؛ بين يديه الآن جثمان امرأةٍ ما. في وسط الأيكة قبرٌ حُفِرَ منذ وقت قصير؛ وعلى حافة القبر يمثل نعش مفتوح. يقترب إلى النعش ويلقي بالجسد داخله، ثم يهرع عائداً أدراجه، بخلاف القمر الذي يبقى في مكانه.

هافديس مجهّزة تجهيزاً جيداً من أجل رحلتها الأخيرة؛ فهي ترتدي أجمل ثيابها المخصصة لقدّاس الأحد، وقد أولى فريدريك كلّ تفصيل في زيّها عنايةً عظيمة: على رأسها استقرتْ قبعة بشريط طويلة وإطارٍ فضي بالتواءات كثيرة، حول عنقها شال بنفسجي من الحرير؛ معطفها من الطراز الإنكليزي، وتبدو من خلاله حوافّ صدريتها المطرزة، مئزرها خيطّ من الورد الجوري، الأزرار المصبوبة بالفضة البيضاء تحمل

نقشاً لحرف "أ"؛ تنورتها مقلّمة بمربّعات من المخمل المغروز بالإبرة والخيط، وقد غطيت ساقاها بجوارب قصيرة حمراء وجوارب أعلى سوداء اللون؛ حذاؤها من جلد العجل بلون نبات الخلنج بتطريز أبيض، وترتدي في كفيها قفازين أسودين، بورود من أربعة ألوان محبوكة على ظهرها.

اشترت أبّا هذه الثياب الفاخرة لنفسها، وقد سدّدت ثمنها من الراتب الذي كانت تتقاضاه لقاء مساعدتها في أعمال المزرعة المُجهِدة التي كانت تجري في بِرْكَا. بين جمع النباتات من جهة وبين تصنيع كتب صغيرة حول النبات الآيسلندي من جهة أخرى: "بسبع وخمسين عيّنة أصيلة مجففة"، كما وصفت مرة في مقال حول آيسلندا في صحيفة ألوستريارت تزايتونغ الألمانية. كانت من نوع الكتب التي يهديها الشبان العشاق إلى زوجات المستقبل، وقد تركت الصفحات الأخيرة منها فارغة لتُملأ بأشعار عذبة.

يجثو فريدريك بجانب النعش، متأبطاً كتاباً من نوع مختلف، سميكاً مثل سفر المزامير، وتظهر ريشة طائر غريبة مغروزة بين الصفحات. إنه كتاب أبّا للطيور وقد جمعتْ فيه ريشاً بشغف ودقة عظيمة. ألصقت الريش بالصفحات، وبحسب تعليماتها سجّل فريدريك اسم كل طير وجنسه، ذكراً أو أنثى، وكذلك أصل كلّ ريشة. لطالما تساءل من أين تحصّلت أبّا على هذه المعرفة التقليدية بالطيور، غير أنه لم يتلقّ أيّ جواب منها، وحين حاول أن يعلّمها المزيد عن التاريخ الطبيعي شكرتْه بتهذيب قائلةً، بكلّ بساطة، إنها مهتمة بالطيور.

على الصفحة الخارجية حيث العنوان كتبت بخط يدها: "طـيـور من العاالم – أبّـا مـن بِرْكـا".

يضع فريدريك الكتاب على صدر أبّا وينظّم يديها كي تتصالبا فوقه. يسهو، ويجد نفسه دون قصد يشدّ عليهما. شعوره بالأصابع الصغيرة بين قفازيه يُخلّف فيه بهجة ما؛ ها هما اليدان اللتان روّحتا عنه بعد فقده والدَيه.

يُقبّل جبينها.

يغلق النعش.

ينتهي فريدريك من طمر حفرة القبر. يخلع قلنسوته الصوف، يطويها ويدسها في جيب معطفه. ينزع قفازيه ويحشرهما تحت إبطه.

يهوي على ركبتيه.

يحني رأسه.

يتنهد بحسرة.

مستقيماً الآن، ينظر إلى أسفل عبر الأرض ليبصر صورة وجهها، أبّا، وليقرأ مقطعين شعريين من أجلها. المقطع الأول متفائل ومقفّى، عن عصفور صغير، من تأليفه:

"عصفورٌ يغنّي في الصيفِ
في يوم نوّارٍ مشمسْ:
يا بهجةَ قلبي، قادتْني
لنسيم هواءٍ في الطيفِ
حتى ألقى صديقي النائي.
عصفورٌ صغيرٌ قد غنّى
في أعلى غصنِ غبيراءِ".

القصيدة الثانية مقدمة أغنية قصصية تتحدث عن المساواة التي تغمّر

جميع الكائنات الحية عند الموت، دون حاجة إلى ثورة:

يُسقَطُ في يديّ الأرض
الجميع ينمو، يكبر ويهترئ
الجسد سيصير غباراً – مع ذلك، نُزَيّنه.

ينهض على قدميه ويضع قلنسوته على رأسه ثم يبحث في جيبه عن مزماره الصغير المصنوع من عظم ساق خروف. يعزف قطعة من "وفاة العندليب" لفرانز شوبرت رابطاً بذلك المقطعين الشعريّين ببعضهما.

لكنّ عيني فريدريك تغرورقان بالدموع في نهاية الأمر: تندفع الدموع على خديّه لكنها سرعان ما تجفّ في منتصف الطريق لشدة ما يحمله الطقس من برودة. يودّع هافديس يونسدوتّير بآخر ما لفظتْه من كلمات قبل رحيلها:

"أبّا – إيبو"

***

من بين القمم البعيدة، جهة الغرب، يمكن إلقاء نظرة خاطفة على الكون حيث وميض ثلاث نجمات من كوكبة الدجاجة.

أكوامٌ ثقيلة من الغيوم ترمي ظلالها المعتمة على الوادي.

تهطل الثلوج حتى وقت متأخر من الصباح.

السماء صافية لكنّ النهار يبدأ بالتفتح ممهداً لفصلِ شتاء قاتم. فريدريك ب. فريديونسون يقف خارجاً في الفناء في بْرِكّا، محتمياً بباب بيت المزرعة، يدخّن تبغاً منكّهاً بالأفيون من غليونه.

شيء ما يمسّ قدمه برفق: إنه أقدم القطط الحيّة في شمال أوروبا، فريكّي الصغير. بردان بعد "رحلة الشتاء" القططية، ويودّ لو يسمح له بالدخول. يُجبر فريديريك على فعل ذلك كون القط سميّه.

بعيد ذلك، يرصد رجلاً يخرج من بيت المزرعة في دالبوتن؛ إنه القس بالدور سكوغّسون، ويشبه نتوءاً وسط المناظر الطبيعية. يبرز قضيب صغير من كتفه اليسرى: إنها بندقيته.

يتجه نزولاً بين الحقول، ثم يحثّ الخطى شمالاً عابراً أسار نحو المنحدرات الصخرية في بيارغ.

ينفض فريدريك – العشبي غليونه بضربه بكعب حذائه.

يتجه إلى الداخل كي يأخذ قسطاً من النوم.

III

(11 – 17 كانون الثاني/ يناير 1883)

ينطلق عيار ناري يعصف بالسلام الإلهي الراكد في البرية كقصاصات من الورق. وابلٌ من الشرارات تَفجّرَ خارجاً من ماسورة البندقية. فرقعه البارود تصرخ: "فليُصغَ إلى الرجل!".

قُذِفَتْ الثعلبة في الهواء مطلقة أنيناً مثير للشفقة.

يدبّ القس بالدور على قدميه.

شموس قرمزية اللون وشرائط من النور تلتمع في عينيه، وهناك صلصلة مزعجة في أذنيه. ساقاه متيبستان بسبب استلقائه الطويل في الثلج، لكنّ شرايين الحياة تصطخب بالدم في جسمه ما إن يبدأ المشي.

ينسلّ القس إلى أن يصل الصخرة، حيث يتمكن من معاينة الثعلبة. إنها تستلقي هنا، أجل، وقد أضحتْ في عداد الموتى. ينزل على ركبته ويضع يده على فرو الذيل. لم يتضرر البتة - لا بدّ أنّ له قيمة مالية كبيرة.

يعدّل قامته وينهض مقحماً جسم الثعلبة داخل معطفه.

***

النتوء الأكثر ارتفاعاً في قمة آوشهايمر يعرف باسم هضبة الشرق العليا. القمة نفسها تتجه، على نحوٍ ما، إلى جهة الغرب، لكنّ لها شكل قرنة حادّة كنصلِ شفرة، ما يشير إلى أنّ منحدرها المعروف باسم المنحدر الجنوبي يطلّ، في الحقيقة، على جنوب الجنوب الغربي.

في العواصف الثلجية الشمالية الشرقية تسوق الريح ثلجاً يكسو مساحات واسعة من الجانب الجنوبي لهذه القرنة؛ فيمتدّ يميناً من أعلى نقطة فيها ثمّ ينزل حتى يطأ جذور القمّة الدفينة.

هناك تماماً يقف القس بالدور. سلاحه الناري في يده اليسرى، أما ذراعه اليمنى فمدفونة حتى المعصم داخل معطفه، كأنه نابوليون في

الصحراء، وهناك تُرجِعُ القِّمةُ صدى طلقته.

***

ينفسخ الجرف الثلجي في الوسط مطلقاً قعقعة مدوّية حدَّ أنّ الثلج الرخو يدوّم حول القس بالدور، حاجباً عنه صورته وماحياً الرؤية أمامه من كلّ الاتجاهات. الشطر السفلي من الجرف ينطلق نازلاً نحو قعر الجبل، مقتلعاً في طريقه القس عن موضع قدميه.

تشقلبَ، تدفعه حافة الجرف، حاطّاً تارةً على قدميه وتارةً على راحتي يديه، متقلّباً مراراً وتكراراً، ليفقد بندقيته وقبعته الفرو. حُمَل مسافة طويلة على أربع قبل أن ينتهي به المطاف راسياً على قدميه. وقد تمكّن بعد ذلك من الصمود أمام الانهيار الثلجي للحظات قبل أن يطرحه هذا الانهيار أرضاً؛ فيدفعه تارةً فوق الثلج وتارةً تحته، فيُطمر جسمه أحياناً نصفياً، وأحياناً كلّياً. بهذا التعاقب أمضى القس بالدور رحلته.

لكنه حافظ على وعيه التام طوال الوقت، إذ لم يكن يُطمر تحت الثلج لفترة طويلة.

***

مئتا ياردة هي المسافة التي قطعها الرجل فوق المنحدر قبل أن يهمد الانهيار الثلجي تماماً. حدث هذا بمحاذاة الصخور العالية على حرف "كرسي فرِيّا"، و"كرسي" هيِ التسمية التي تطلق على التجاويف العميقة في منحدرات آوشهايمر. دونه، يقع منحدر كينّار الشاهق والوعر، إشراقُ حافةٍ، تحت سفح كتلة جليدية ضخمة.

استلقى القس بالدور ساكناً، محاولاً استرجاع طاقته بعد هذه الرحلة.

شهق وسعل قليلاً. لقد جهد كي يتنفس خلال سقوطه. لم يستطع أن يوسّع صدره بسبب الثلج الذي كان يجثم فوقه ويضغط عليه من كلّ الجوانب. كان مطموراً بالكامل، كأنما منفصل عن رأسه وكتفه اليمنى، اللتين برزتا بين الثلج. حاول أن يحرك نفسه لكنه بالكاد تمكن من أن يرجّ قدمه اليمنى أو أن يهز كتفه. كان يشعر بألم في فخذه الأيسر وتوقع أن يكون مكسوراً لأن ساقه كانت مخدّرة.

أصبح الطقس معتدلاً، بغيوم خفيفة ونسمة جنوبية لطيفة. كانت شمس الشتاء تعوم فوق المنظر البري، سمينةً وحمراء كصفار بيضة غراب. إنه السكون، وقد امتطى، حتى وصل إلى هنا، جناحيّ عاصفة يوم أمس.

***

بسط ظلٌّ عتمته فوق قشرة الثلج، وما هي إلاّ لحظة حتى جاء غدّافٌ أسود وحطّ. أصلى رأسه على جهة واحدة، معايناً بسرعة الرجل العالق في الفخّ الثلجي. نتر القس بالدور رأسه وهشّ على الزائر غير المرحَّب به بغية ترويعه:

"اللعنة عليك، أيّ قبح وخسّة تحملهما من إلهك الدجّال أودين!"

لكنّ الغدّاف، كعادته، لم يذعن للكاهن، بل فوق ذلك راح ينادي على سميّه، فالتفت بالدور مجدّداً ليجد نفسه محاطاً بطائرين الآن بدلاً من واحد. راحا يتهاديان جيئة وذهاباً، وهما يشحذان منقاريهما، ومن وقت لآخر كانا يمدّانّ عنقيهما نحوه محطِّمَيْن السكون بإطلاق صياح بشع يدلّ على وجود جيفة:

"كارك، كارك..."

أخذ الطائران يتقدّمان منه بوثبات قصيرة كضيفين متلهفين لوليمة.

لكن حين بدأ الغداف الأكبر حجماً بتمزيق صوف الشال، بعد أن اختطفه عن عنق القس بالدور، أحسّ الأخير أنّ الوقت قد أزف لوضع حدٍّ لهذا الاعتداء المستفز. شرع لقسّ يغالب جرف الثلج بقوة كي يتمكن من انتزاع ساقه اليمنى وتحريرها، وفي وقت قصير خلّص ذراعه لتصبح بدورها طليقة.

أخيراً، وبعد صراع طويل ومنهك، وجد نفسه يزحف ببطء خارجاً من "القبر الناصع البياض"، وقد أمضى معظم وقته ناجحاً في إبقاء الغدّافين على صخرة قريبة مهدِّداً ومستخدماً كرات الثلج.

***

صحيح أنّ القس بالدور قد أصبح الآن فوق سطح الأرض، لكنه لم يكن قد تحرّر كلياً من الثلج. فخلال سقوطه عن المنحدر بالسرعة الفتاكة ومكوثه ممدداً بين طبقاته تغلغل الثلج عبر ثيابه وتمكّن من النفاد إلى جلده. وقد بدأ الآن الوحل الجليدي، ذائباً، بالنزول في جسمه في تيارات لاسعة البرودة، من تحت إبطيه إلى صدره وظهره، وهبوطاً في حذائه.

همهم القس بصوتٍ خفيض ما إن تحوّل الماء فاتراً فوق جسمه المقصوف.

***

بدأ يفكر برحلة العودة إلى المنزل؛ وكان عليه إما أن يتبع حزام الصخور غرباً، وصولاً إلى الأخدود.. أو لعله يذهب في الاتجاه المعاكس تماماً ويحاول اتباع مجرى نهر مجادارا... أو... لكنه لم يتمكن من المضي قدماً في أفكاره بسبب نعيق الغدّافين الجائعين قربه. طافا حواليه، أحنَيا

جسديهما بسبب تضورهما جوعاً، تلوّيا على ظهريهما، نعبا وخبطا أجنحتهما بالأرض المجمدة.

هزّ قبضته في وجه الطيرين صائحاً:

"اصمتا وإلا أحرقتُ رأسيكما اللعينَيْن!"

عرفت أُسر دالبوتن طريقة لوقف الصداع وذلك بحرق رأس غدّاف في قدر وخلط رماده بغسول قِلوي حاد، بعد ذلك توضع لطخة من المزيج فوق الألم وتُترَك حتى يخمد تماماً.

والآن، بما أنّ هناك فرصة للقيام بهذا، فإنّ الغدافين قد أذعنا؛ فقد صمتا معاً في وقت واحد، وأقلعا عن المنبسط الثلجي وبسلاسة حلّقا فوق حافة الجرف دون القيام بأقلّ جهد يفوق التصفيق بالجناحين. ذلك أنّ تيار الهواء المتجه صعوداً هناك التقطهما ورفعهما عالياً داخل الزرقاء.

حينئذ بديا جميلَيْن للغاية.

***

تنخّمَ القس بالدور بقوة، هاماً بالبصاق حيث كان الغدافان، لكن، قبل أن يقذف بصقته في الهواء، تناهى إلى سمعه صوت صفير عميق آتياً من الأعلى. حدّق ملياً وتفحص بعينيه قمة آوشهايمر؛ لقد تلاشى الجزء العلوي من الكسوة الثلجية أعلى الهضبات.

في اللحظة عينها قرّر الانهيار الثلجي أن يفد مرة أخرى إلى الكاهن. لطمه من الخلف وكنّسه بعدها عن الجرف. في الدرب احتكّ جسده بحرف الصخور، انسلخ البلاكلافا[1] حتى يافوخ رأسه، واقتُطِعَتْ كتلةٌ

1 بلاكلافا: قناع صوفي يغطي الرأس بأكلمه والرقبة والكتفين. يستعمله المتزلجون عادة.

من الدهن من رقبته.

بدا له أنّ السقطة سوف تنطوي على ضررٍ أقل وأنّ جراحه ستكون أقل خطورة لو ترك جسمه مرتخياً. أثناء هبوطه في منحدر كيئرٍ توقّف لأجزاء من الثانية قبل أن يُدَوّم مجدّداً وبسرعة مضاعفة هذه المرة - رأسه الآن في المقدمة. خامر الشكّ القس بالدور في أنّ ساعته قد حانت لا محالة، غير أنه صمّم على الوقوف ضدّ مصيره، لذا حاول رفع رأسه فوق مستوى انجراف الثلج، شاقلاً إياه قدر ما يستطيع.

شعر وكأنه مقبوض عليه وسط عاصفة متّقدة غيظاً، سوى ذلك لم يكن هناك ما يقلق راحته إلى أن بدأ يواجه صعوبة في التنفس.

***

بعد وقت قصير وصلت رحلة القسّ، في هبوطه الجحيمي والمعبأ بالثلوج، إلى نهايتها.

ما حدث هو أن الانهيار الثلجي قد كُبِحَ كأنه موجة على شاطئ صخري، فقد تكسّر فوق الركام الجليدي وقذف بالرجل، على أثر ذلك، داخل كهف صغير - تجويف متمدّد تكوّنَ أواخر العصر الجليدي بعد أن تحرّكت ألسنة الجليد بتثاقل فوق أرومة جبلٍ مجتثّة ضرساً من الصخور بطول ثلاثين ياردة.

يصح القول إنّ القس بالدور قد وجد نفسه أخيراً يستريح داخل تجويف تحت مستوى سطح الجليد.

أما الانهيار الثلجي فقد جثم بكلّ ثقله فوق التجويف ساداً إياه.

استلقى على ظهره، ساقه اليمنى مستقيمة وتعلو رأسه ببرودة واحدة، وساقه اليسرى تقوّست وذراعه اليسرى كانت تجثم على بطنه، أما ذراعه اليمنى فكانت أيضاً مقوّسة لكن مفتولة بصورة شاذة. كانت حقيبة الظهر قد انزلقت عن ذراعه اليسرى والتفّ حزامها الجلدي فوق كوعه الأيمن، معوّقاً الجزء العلوي من الذراع.

لم يكن القس في وضعية مريحة إلا أن ذلك لم يسبب له أي إزعاج كونه الآن بات منافساً فاقد الوعي في حلبة العالم.

***

كان من حسن حظ القس بالدور الآن أنه قد لُفَّ على نحوٍ جيد.

فوالدته، ناوْلْ فالديمارسدُوْتير، هي من ألبسته ثيابه لرحلة صيد الثعلب. كان يرتدي نسيجاً صوفياً تحتيّاً سميكاً معالجاً بحيث يستطيع الوقوف منتصباً من تلقاء نفسه؛ قميصاً من جلد الأرنب؛ وسترتين من الصوف، واحدة خفيفة وأخرى بالغة السماكة؛ سروالاً دنماركي؛ ثلاثة أزواج من كلسات صوف محبوكة وحذاءً من جلد الفقمة غير الحليق. أما فوقها جميعاً فكان يلبس سروالاً من الجلد، وأيضاً معطفاً جلديّاً بصدر مزدوج وأزرار من عظم الحوت.

لكنّ الأكثر أهمية من كلّ هذا هو أنّ ناوْل جهّزتْ ابنها بشال من الصوف حبكته بيديها، وهو قد طوّق رأسه بالشال عن عمد كي يكون مرئيّاً للثعلبة، وهذه الطريقة الذكية منعت القس من خسارة أيّ

شيء في الانهيار الثلجي الأول باستثناء قلنسوته – وهي قطعة ألمانية الصنع من جلد الجدي – التي لم تعد بعد الآن جاثمة فوق رأسه، بينما لفّ، في هبوطه الثاني، الشال فوق البلاكلافا الذي أصبح نصفه الآن خارج رأسه.

أما صدره فقد كانت الثعلبة البائسة جاثمة فوقه.

***

الصخرة التي خلف الرجل تنشقُّ منفتحةً كباب. في إطاره تقف امرأة شابة لا ترتدي سوى سروال تحتي من الصوف الأزرق وقبعة مزينة بشريط أحمر. تأخذ بيد الرجل وتقوده إلى حجرة واطئة السقف. ثمة بئر في وسط الأرضية، وعلى سطح الماء تطفو رصاصة، تطفو ولا تغرق، سطح الماء رمادي إذن، وهناك طلقة فوقه.

تشير إليه قائلةً:

"هي ذي بئر الحياة".

انتفضَ الكاهن.

أذنتْ المُثْلَجَة لظلٍّ أزرق قاتم بالعبور نحو الحجرة الصخرية الضيقة، واستعان القسّ بالدور بالضوء الباهت كي يستطلع ما يحيط به. استلقى أسفل الحائط، الذي يجب أن يكون الحائط الشرقي. كان قد خدش قليلاً قدمه اليسرى أثناء نومه، لكنّ ساقه اليمنى كانت لا تزال عالقةً بصورة محكمة، مُستقيمةً ومصوَّبةً في الهواء. لم يكن بمقدوره الجلوس أو الالتفاف أو تخليص نفسه مهما صارع لذلك، وهو يتقد غيظاً.

أُنهِكَ بعد وقت قليل بسبب المجهود الذي بذله دون جدوى، سرى

في أعضائه خمول ثقيل ففقد وعيه مرة أخرى.

***

اعتقدَ أنه قد تلقى، بلا شك، ضربة على رأسه، فقد استيقظ فزعاً على صوت ساقه اليمنى بعد أن هوت على الأرض مطلقةً صوت ترشاش صاخب، بدا له كأنّ قوس القزح نفسه يسطع في المكان، نافذاً عبر العين الجليدية التي في فوهة الكهف. لم يستطع تبيّن مصدر الألوان الآتية صوبه، لكنه خمّن أنّ الليل لا بدّ قد حل في الخارج وأنّ شقيقات الأضواء القطبية الشمالية قد تبعنه من آوشهايمر كي يلقيْنَ التحية على صديقهم القديم بالدور سكوغستّون.

فكّر القسّ أنّ هذه اللفتة تدلّ على كياستهن الشديدة.

إلا أنه شعر ببردٍ يجتاح أطرافه وحاول أن يحرك نفسه الأمر الذي وَلّدَ في جسمه شيئاً من الدفء من جديد. لساعة أو ما يقاربها كان يحرف موضع جِسمه بين فترة وأخرى خلال الليل، مغيّراً في كلّ استراحةٍ اتجاه جسمه - متجنباً أن يتسبّب له مجهوده بأيّ إعياء. الحزام الجلدي في حقيبته كان يمعن في التضييق على ذراعه اليمنى لكن لم يكن بمقدور الرجل الوصول إلى سكينه لقطعه.

كان يعرف أنّ من الممكن البقاء على قيد الحياة لفترة طويلة في الثلوج، لكنه توقع أن تبسط المثلجة مِفْرَشاً من البرد - فائدة هذا أنّ جسمه سوف يتبلل بصورة تدريجية بسبب الثلج المحيط به من كل جانب والآخذ في الذوبان.

حل مساء اليوم التالي وهو لا يزال في مكانه.

***

في الصباح التالي بلغت الحرارة المتولدة بفعل ارتجاج بدن القس بالدور، الثلجَ بجانب ذراعه اليمنى ورأسه. كان لا يزال مالكاً قواه العقلية وقادراً على رفع نفسه مستنداً على كوعه. لاحظ أنّ الثلج الذي بَعَجَهُ رأسه كان داكناً. هذا المنظر نبَّهَه إلى الوخز الذي يشعر به في عنقه. خلع قفازيه ومدّ يده إلى الخلف وتحسّس قفاه: تراءى له أنه قد اكتسب فماً جديداً، فهناك لحمٌ ناتئ بين عظمة العنق وقبّة الكنزة.

تحسّس هذه الظاهرة وقتاً لا بأس به قبل أن يسحب يده. كانت مغطاة بالدماء التي ظهرت بلون أسود في الضوء الخادع النافذ من شقّ الصخرة. لحس القس بالدور الدماء عن أصابعه؛ لا يجوز إهدار أيّ شيء فيه فائدة غذائية. غطى جرحه بالقفاز ولفّ الشال حول رقبته وشدّه جيداً.

ثم غطّ في نوم عميق.

***

هبط الشفق بغتةً، لا تدريجياً، مصطحباً معه ظلمةً حالكة.

استشعر بللاً في الثلوج، الأرجح حوالي منتصف الليل، وفي صباح اليوم الرابع لإقامته كان كلّ ما يحيط بالقس بالدور قد ذاب ما مكّنه من إزاحة حزامه، تناولَ سكينه وقطع الرباط الجلدي المهين. جالساً، جَرَّ الحقيبة نحوه. لديه في الداخل مؤونة: رأس سمكة قدّ مجفف.

رأس سمك القدّ ليس فقط طعاماً غير ملائم لجنتلمان، بل هو أيضاً إلهاءٌ وترويحٌ للنفس؛ فكما سلخ اللحم عن الرأس ودسّه في فمه بطرف

سكينه ومضغه بأبطأ ما يمكن كي يدوم، كذلك راح الرجل يسلّي نفسه بترديد اسم كلّ عظمة وجزء من الرأس البشري:

"الحنك، ذلك هو مكان عضلة الفك، المنكب، ذلك هو مكان عضلة الكتف، عظمة الرفرف، ذلك هو مكان عضلة الرفرف، عظمة الغراب، ذلك هو مكان عضلة الغراب، اللثة، ذلك هو مكان عضلة اللثة، الوجنة، ذلك هو مكان عضلة الوجنة، قفا العنق، ذلك هو مكان عضلة قفا العنق، الجرس، ذلك هو مكان العضلة الجرسية.

"هذه هي كلّ عظام هذا الرأس القديم".

انفجر القس بالدور مقهقهاً. استجمع صورة تلك الحيزبون العتيقة، أمه، بصنارة عظمية في شفتها السفلى المجعّدة الضامرة، مغمغمةً:

"يا شيئي القليل، يا شيئي القليل.."

لم يتمكّن القس من كبح بهجته. أمسك ببطنه واستغرق في القهقهة. قهقه حتى تحوّل صوته نباحاً. نبح وهو يقهقه حتى بدأ يبكي، وذرف دموعاً آلمته.

أجل، لقد بكى بمرارة على مصيره المشؤوم الذي تركه هنا وحيداً، ما من أحد يشاركه المتعة المتأتية من رأس سمكة قدّ المجفف.

***

في اليوم الخامس بدأ القسّ، الذي كان لا يزال تحت المثلجة، يخشى تدهور سلامة عقله؛ فأخذ يقوم بما يمكن لأيّ آيسلندي أن يقوم به في حال وجوده في مأزق، وهو أن ينشد أغاني شعبية، أبيات شعرية وأراجيز، ويغني بصوت عال لنفسه، وإذا لم يجدِ هذا كله انتقل إلى التراتيل. إنها حيلة قديمة مأمونة الجانب إذا أراد الرجال استعادة هدوئهم.

باشر القس بالدور، يقظاً، برنامجه هذا. غنّى وسمّعَ كل ما يعرفه، حتى إنه ردّد مزامير داوود. لم يبقَ لديه شيء سوى "بيغ بانغ" للقس يوكومسون وقصيدة هزلية من تأليف زميل له هو ثورارنسن. لذلك تعمّد أن يهمل هاتين القصيدتين ويبدأ من الأول مرة أخرى ليكتشف مندهشاً أنّ كلّ ما سقط من شفتيه إلى حدّ الآن تسرّب، إلى غير رجعة، من ذاكرته. لم تتبقّ عنده كلمة واحدة، أو حتى حرف واحد ينشده.

تصرّف بسرعة، مختبراً إذا ما كانت الحال على هذا المنوال فعلاً؛ فأخذ يلفظ بصوتٍ هادر كلّ أبيات شعر جوشومسون "تغريدة مديح" – وهل تدرون؟ ما إن إنتهى من أدائه حتى عجز عن تذكّر أيّ شيء.

عندئذ أتى على أبيات القس غيسلي.

***

قائمة المشتريات من عند الحانوتي

أوراق وحبر وأقلام وشمع
زبيب وخوخ، قنّب، كتّان
تبغ، فلفل وزيت كافور
قنطار من القهوة، خطافات وشرائح معدنية
سندان، زجاج نافذة، حبل للتطويق
زنجبيل، روم ونبيذ أحمر فاخر
بهذه الأشياء ستكون حاجاتي بسيطة للغاية
يوم ألتقي العجوز ثورغريمسن
وتأتي الآن زوجتي، أعني

تشتري برميل مشروب مسكر
ثوب حرير، صابونة، غلاّية تُصفِّر،
ستة صحون، وعاء معدني يُمكن إغلاقه،
بطاقات وحُليّ رخيصة، لفافة قرفة،
تشتريها وكأنما من أجل الحياة ومن أجل الروح،
ولو تُرك الأمر لها
لذهبتْ إلى الحانوت كل يوم.

***

أخذت القصيدة تطنُّ بغير انـ.. انـ.. انقطاع في ر.. رأس الـ.. الرجل كذبابة تحت لوح زجاج، دو.. دون أن يكون قادراً على مقاومتها. شـ.. شعر في نفس الـ.. الوقت أنه حـ.. حار وبـ.. بارد، مثلج – ساخن ومغلي – بارد معـ.. معاً. بكل ما أوتي من عـ.. عزم، حـ.. حاول أن يستعيد قصهصاً أخـ.. أخرى، قصـ.. قصائد أخـ.. أخرى، لكنها كلـ.. كلها بدت ضائعة ومنسية، ضائهعة ومنـ.. منسية داخل نواة ذاكرته المتجمّدة، كان عا.. عالقاً دا.. داخل دمـ.. دماغه المغـ.. مغـ.. مغلي:

أووه، أو – و – وه، كـ.. كم هو مخـ.. مخجل أن أمـ.. أموت مع لائحة المشتريات السـ.. السخيفة هذه، لائحة المشتهريات التي على لـ.. لسان لساءني رغم أنني كا.. كا.. كاهن.

ز.. زمّ فمـ.. فمه كي يمـ.. يمنع كلـ.. كلماته المـ.. المحتضرة من الخروهج والظهوهر، مثلاً: "قنطار من القهوة"، رغم كو.. كونها حقيـ.. حقيقية لـ.. لم يكن هنـ.. هناك شاهد على موته سـ.. سوى

"آيتش تي" - الثـ.. الثالوث المـ.. المقدّس - لم يُياءِل. وللحـ.. للحظة فـ.. فقط شعـ.. شعر القس بالدور بـ.. بالأسى على نفـ.. نـ.. نفسه.. سه.

هـمـ.. همس فـ.. في عيـ.. عين الظـ.. الظلام:

"يا لهـ.. لها من حفرة بشـ.. بشعة، هذه.."

أحسّ فوراً أنه أفضل حالاً.

أغمض عينيه

مترقّباً موته.

"هُووو، أيها القس بالدور، بالدور سكوغسّون، هووو!"

النداءات التي تناهت إلى أذني الرجل المحتضر بدت كأنها آتيةٌ من بطن حوت؛ كان الصوت مكتوماً، لكنّ المسافة جعلته، إذا كان يمكن القول، صارّاً:

"هووو، القس بالدور، هووو!"

انتفض جسد القس خارجاً من سبات الموت:

"هووو، أنا هنا، هووو!"

ثم سكت مصغياً إلى الإجابة:

"هووو! هووو! هووو!"

مزّق البلاكلافا وأدار أذنه اليمنى نحو جدار الجليد الأزرق الرمادي، لكنه لم يسمع شيئاً - أدار أذنه اليسرى: أيضاً لا صوت.

"هنا! هووو! هنا!"

صاح وصرخ، ثم أتلع أذنيه، محركاً نفسه بحذر شديد بحيث لا تطغى طقطقة ثيابه الجلدية على أيّ ضوضاء في الخارج. أجل! كانت هناك؛ أقرب الآن. ناداه صوت واهن:

"هل أنت هنا؟ هووو!"

"هووو! هنا! هووو!" زمجر القس بالدور بكلّ ما أوتي من حياة وبكلّ ما أوتي من روح.

***

"هل تنوي إصابتي بالصمم؟"

صار قلب القس بالدور بين ساقيه. الصوت الاستجوابي لم يأته من بحّاثة في منبسط الثلج خارجاً، كلا، بل إنّ هذا الاستجواب المتطاول كان مصدره شخص ما داخل الفجوة معه، وليس حتى داخل الفجوة معه، بل شديد القرب إليه أو، لمزيدٍ من الدقة، داخل ثيابه.

زعق القس مرعوباً عندما رأى الثعلبة تتقلقل عند صدره. تلوّى في فراشه الرطب الحقير، ممزّقاً معطفه الجلدي بحركةٍ ملؤها العنف حتى أنّ الأزرار المنحوتة من عظم الحوت تطايرتْ و لم يتبقّ لها أيّ أثر. (الأمر الذي كان، إلى حدٍّ بعيد، مثيراً للأسى لأنها كانت أشياء ثمينة وأنيقة نحتها هارالدور، الأخ غير الشقيق للقس بالدور، بيديه وقدّمها له كدليلٍ على صدق مشاعره تجاهه).

وثبت الثعلبة إلى الأمام لتهبط على أرضية الكهف. راحت تغزل حول نفسها في دائرة، لتستقر على وركيها - وبدأت تلحس نفسها كأنها قطة منزلية.

***

لكنّ القس بالدور سرعان ما تمالك نفسه؛ فهو رجل قد تدرّب كهنوتياً؛ والآن صورته كعا لم طبيعة تهيمن في نفسه. راقب سلوك المفترس الذي

أمامه بحسٍّ علميٍّ موضوعي.

إنها لعنة مفعمة بالحيوية، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار بقاءها في البرد لستة أيام وليالي. كان انشغالها بنفسها مدعاةً للسخف. فقد لعقت بقع الدماء عن فروها وطمرت خطمها كأنما تحت جذور عاضّةً نفسها وكأنها تتطهر في يوم القيامة.

أغمض مراقب الطبيعة إحدى عينيه فقط.

"يا لها من مخلوق، أُفّ!"

صفع فخذه بيده.

"هه، مصّاص الدماء يشرب من دمه، دمه الخاص!"

في تلك اللحظة بصقت الثعلبة القطعة الأولى من الرصاصة التي اخترقت جسمها. أزَّتْ بالقرب من خدّ الكاهن. أطلق أنيناً وسباباً. لكنّ الثعلبة تجاهلته. استمرت تتأنق حتى أزالتْ من لحمها كلّ ما أودعته البندقية فيه: الطلق المعدني الملطخ بالدم ارتدّ عن جدار الثلم، وتطايرت شرارات عظيمة من الصخور حيث ارتطمتْ الرصاصة.

أُجهِدَ القس وهو يحاول تجنب وابل الرصاص الذي راح يئز من حوله من كل حدب وصوب كسرب من البراغيث.

***

أخذت الثعلبة تخطو إلى الأمام والخلف جيئةً وذهاباً، هنا وهناك. جلس القس بالدور هادئاً في مكانه، واضعاً يديه في حضنه. تعمّد أن يتفادى النظر إلى عيني الوحش أمامه؛ فقد بدت الثعلبة منفعلةً ولا يمكن التنبؤ بما قد تقدم عليه.

مرّ الوقت.

ومع أول خيط ضوءٍ في الصباح التالي نهضت الثعلبة واقفةً وقالت:

"إذن، أيها الأب، ما الذي سنفعله الآن؟"

"يمكن لنا أن نتناقش"، أجابها.

"ما الذي يمكن أن نتناقش بشأنه؟"، سألته.

"الكهرباء"، قال الكاهن.

رمقتْه الثعلبة بنظرة كما لو أنه أحمق:

"إذا كنت تعتقد أنّ وحشاً برياً مثلي على علم بأدنى مبادئ الكهرباء فأنت مخطئ إلى درجة تثير الأسى.."

لكنّ القس أصر على الأمر فاقترح أن يطرح عليها أحجية إن حزرتْها يكون لها الحق في أن تقرّر موضوع النقاش؛ أما إذا أخفقتْ يدور النقاش عندئذٍ حول الكهرباء. وافقت الثعلبة:

"إذن، هات ما عندك.."

"أُولَدُ بضوضاء عالية، لكن لا صوت لي".

استغرقت الثعلبة وقتاً طويلاً في التفكير – بالنسبة إلى القس بالدور الذي لم ينبس ببنت شفة و لم يُرد إعطاءها أيّ إشارة – لكنها في النهاية استسلمتْ.

"هل استسلمتِ؟"

قهقه القس ساخراً من غباء الثعلبة وقال:

"الضرطة!"

ثم صمت تهيؤاً للدخول في موضوعه الجاد.

"يا لها من إجابة سهلة"، ردّت الثعلبة بجفاء:

"فلتمضِ إذن في فكرتك، وليكن نقاشاً في الكهرباء".

***

إنّ مسألة الكهرباء - والحقّ يُقال - كانت يجب أن تناقش في بيئة أعظم من مجرّد شق حجري في فناء مثلجة. مردّ الأمر أنّ بالدور كان قد دُعِيَ إلى ركيافيك لإلقاء خطبة أمام الجموع تتناول اهتمامه هذا، بعد إعلانٍ عن الموضوع. هناك، تعمَّد أن يعارض رأي نازح آيسلندي - كندي كان يزفّ خبر إنجازات أديسون في الكهرباء على مسامع بني قومه.

لو لم يهاجمه الانهيار الثلجي لكان القسّ عاد إلى منزله في دالبوتن في الصباح التالي لاصطياد الثعلبة. كان سيضع اللمسات الأخيرة على كلمته قبل أن يصل، بعد أربعة أيام، إلى العاصمة، ظهر يوم الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير، وفي المساء كان سيمسح أنفه ومؤخرته بغريمه. وفق حساباته، فإنّ الاجتماع قد حدث قبل ثلاثة أيام من الآن؛ وأن يتشاجر مع الثعلبة في الموضوع نفسه فإنّ ذلك ينطوي على تعويض ما.

هكذا، شرح القس للوحش نظرياته في الدين، وبالتالي فإنّ لديه حججاً لاهوتية لا تجيز اختراع الكهرباء. وهذه النظريات كانت حديثة للغاية، فالقس بالدور يؤمن بالإله المادي، والخلق الذاتي، والمقارنة الحسية الظاهرية: "عندما تهطل الثلوج على الإنسان، فإنها تمطر على الله".

بناء على ذلك لم يقبل بفكرة أنّ الكهرباء، التي تتولد بفعل احتكاك ذرات متناهية الصغر في عالَم يؤلف جوهر الله، يجب أن تنقل بالأسلاك والكابلات، من هذه الجهة إلى تلك، وفي كل مكان حتى داخل المصانع

حيث يمكن استخدامها لتشغيل آلات، على سبيل المثال، تبصق كرات اللحم، أجل، أو ذرور الخردل.

لكن، ما الذي كان يمكن للثعلبة قوله تعقيباً على هذا الكلام؟

***

قررت أن تنازله في عقر داره:

"لكن إذا كانت الكهرباء هي المادة البنية لهذا العالم، والنور أحد تجلياتها، راجع إذن كتب موسى الأولى، فالله كائنٌ من نور، رغم أننا ربما لا نستطيع رصد هذا دائماً بالعين المجرّدة - تماماً كالصخور الفاحمة شديدة السواد التي تحيط الآن بنا - ألا تعتقد حقاً أنها وظيفة العالم قاطبةً أن يُجلَبَ الله إلى بيوت الناس كافّة بواسطة أسلاك الكهرباء؛ بل وأن تضاء مدن بأكملها به - "n'est - ce pas?"

وجّهت إلى القس نظرة استجواب. أعاد إليها نظرتها دون أن يتفوّه بشيء؛ فقرصتْ الحوار:

"وبالتأكيد فإنّ الكنيسة وخدّامها يجب أن تكون لديهم رغبة في نقل الطاقة الكهربائية إذا كان الله تعالى هو الذي يضيء في المصابيح".

لم يجبْها. هل أربكته الثعلبة؟ كلا، فالثعلبة الصغيرة لم تلاحظ، وهي تتحدث إليه، أنّ القس بالدور قد استلّ سكينه من غمده وخبّأه في يده؛ اليد القريبة إلى الجدار الصخري.

ثم قال بلطف:

"هل فعلاً تعتقدين، سيدتي الثعلبة، أنّ التوهّج المنبعث من مصابيحك الكهربائية تلك قادرٌ على النفاذ إلى روح البشرية؟"

وقبل أن تتاح لها فرصة الرد كان الرجل قد أقحم سكينه عميقاً في صدر الثعلبة.

***

رفع جثة الثعلبة بنصل سكينه وحدق في عينيها الباهتتَيْن؛ كانت حدقتاها شبيهتين بشدّة ببرك جبلية تحيط بها أراض بور في أول نوبة صقيع في فصل الشتاء، غير أنّ القس لم يرَ سوى أنّ الثعلبة، في نهاية الأمر، ميتة.

تدلى جسدها رخواً من بين يديه واكتشف أن جلدها، فالتّ من على جسمها بصورة غريبة؛ في إشارةٍ أكيدة إلى سحر شيطاني - منذ الليلة التي حاولت فيها الثعلبة استنساخ نفسها إلى أربعة ثعالب اشتبه بهويتها. حرفياً: إنها ساحرة شيطانية. المكيدة التي دفعها إليها بإغرائها للكلام أتت أُكُلها. مرسلها لم يكترث، فقد وضع كل ثقته فيها، متكلّماً، دون أن يدرك ذلك، عبرها. استعمال الفرنسية في نهاية حديثها عن أنوار المدينة أخذ الثعلبة إلى مجاهل أخرى. لم يعد لدى القس أدنى شكّ بشأن الذي بعث إليه بالثعلبة ابنة راينارد.

حمل الشيطان كل الإشارات الدالّة على أنّ من ربّاه هو ذلك الأحمق، عمدة فيورد، فالديمَر سكوغسّون، أخوه الأكبر. هذا المدّعي المغرور لم يسامح يوماً القس بالدور لواقع أنّ أمهما ناوْلْ، خلال فترة ترمّلها، اختارتْ أن تقيم في بيت القس في بوتن، آخذةً معها الميراث كله، مجلّد التراتيل الخاص بالشيخ سكوغّي هارالدسون من سورار.

كلا، ولم يردعها عن قرارها واقع أنّ بالدورها لم يغادر ذلك الساحل قط، ولا أنّ كلّ ما تلقاه من علوم مقتصر على مدرسة كهنوتية آيسلندية.

***

سلخ القس جلد الثعلبة، دون أن تغيب عن باله فكرة الانتقام التام من أخيه فالدي. فقطع ظهر الحيوان، شاقاً أخدوداً قرب العمود الفقري من قبة الجسم إلى الذيل: نعم، سيحصل على مبتغاه بالضبط. تحسّس بيديه أحشاءها، أسفل خاصرتها، ضاغطاً بأصابعه بين اللحم والجلد، تاركاً الدهن في البطن: سوف يواجه دعوى في المحكمة العليا بتهمة الشروع في القتل؛ طقّ أطرافها الخارجية وهي لا تزال في جيوبها الفراء، قطع حلقياً حول براثنها وأرغم القوائم على الخروج من جواربها، غرز سبّابته في خطمها ومزق أنفها بإظفره فاصلاً إياه عن الجمجمة؛ سيُساق إلى عود المشنقة، الخدّاع المشعوذ. إذن، الرجل سحب ومزّق وخرق وكدّ كي يفلع الحيوان من فروته الزرقاء.

تجرّد من ثيابه حتى بات عارياً تماماً. استغلّ، بدناءة، الدهن الذي في الكيس الجلدي وزيّتَ نفسه به من الرأس إلى أخمص القدمين، ثم لبس الجلد، الذي تبيّنَ أنه فضفاض بحيث لامستْ القائمتان الأماميتان الأرض. الثعلبة لم تكن لتكترث للصخور التي تستلقي فوقها عاريةً كجنينٍ في الرحم. حشر الرجل أصبعه في قفصها الصدري واقتلع قلبها ووضعه على لسانه:

إنه يبدو كطائر الترمجان حتى بوضعه جلد الثعلبة على رأسه. ابتلع

قلبها الدبق، وأحسّ كأنه صاعقةً ضربته، ومضت فكرة عبر جسده سالكةً طريقها إلى الخارج!

***

شقّ القس بالدور نفقاً له عبر ركام الانهيار الثلجي. استعمل فكيه ومخالبه، ولم يعد يعرف اسمه. راح فقط يقضم ويخدش، يخدش ويقضم.

خفق الدم في صدغيه.

"ضوء، المزيد من الضوء!"

لكنه كان كلما اقترب من هدفه تضاءل وجود الإنسان في داخله وتعاظم الحيوان.

يقف مرتعشاً فوق الركام الجليدي، مبتلعاً هواء الجبل المنعش. شمس الصباح تباركه، تجدّده.

يطلّ على وادٍ طويل ضيّق للغاية ومتّسم بالأخضرار. وترى منحدراته الرائقة وقد استولدت العشب وأجمة من الصفصاف. ثمة نهرٌ يجري في وسطه؛ فحمٌ يلمع تحت سطح المياه، بينما يطفو طائر فالروب فوقه. تُذبر بعض فئران الحقل فوق الأرض السبخة، كروان الماء الصغير يصفّر في المستنقعات المنتشرة، عائلة من طيور الترمجان تنشغل ببناء أعشاش لها في ثنايا كتلٍ عشبية، نحلةٌ تهدر وسط الطحالب وطيور زقزاق تنتظر أن يُلقِي القبض عليها وتؤكل. كلّ شيء أكثر اخضراراً وزرقة، أوسع حجماً وأثخن مما كان عليه من قبل.

ثم يعوي ذئبٌ من على الأرض الصخرية في ثغر الوادي.

"آرغ، آرغ!"

سكوغّا – بالدور يصيخ السمع للنداء.

ليس هناك أدنى خطأ في الرائحة؛ إنها ثعلبة في حال غضب. تشتعل الرغبة في عينيه، يتأهب عازماً بذل كلّ جهدٍ ممكن وينطلق فوق الوادي الرائق؛ سيكون أول من يصل إليها.

إنه الربيع، ولطالما كان هكذا قبل وجود الإنسان.

IV

(23 آذار/ مارس 1883)

نِبرِكّا في دايل، 23 آذار 1883

صديقي العزيز

أرجو المعذرة على تأخري كلّ هذا الوقت في الرد على رسالتك، لكنّ تغييرات جمّة أرخت بثقلها في هذه الناحية من المعمورة منذ رأس السنة. قد لا تكون على قدرٍ من الأهمية أو أنها لا تستحق الذكر بالنسبة إلى عالمك، لكنها تعني شيئاً عظيماً هنا: فقد توفيت امرأة، وفُقِد أثر رجل.

أجل، أبّاي توفيت. حدث الأمر في اليوم الرابع من السنة الجديدة؛ غادرت بسلام وكانت هادئة في موتها. أفتقدها عظيم الفقد، لكنه ليس أمراً يثير التعجّب، فقد حظيت بها إلى جانبي كلّ تلك السنوات. لم تكن متقدمة في السنّ، ربما في الثلاثين من العمر، وأنا أتلاءم مع الذين من طبيعتها. كانت وكأنما كبرت بسرعة تفوقني؛ فقد شابت وشحبت، ومؤخراً أصبحت نسّاءة بعض الشيء. طبعاً، الآن ستسأل نفسك إن كانت قد تسلّمتْ ريشة الطائر التي بعثتَ بها إليها. أجل، تسلّمتْها، وأضفى الأمر على حياتها بهجة عظيمة. فقد عنى لها كثيراً أن تحظى بريشة فرخ التّمّ الدنماركي، كانت فعلاً تعرف قصص هير أندرسِن جيداً – و لم تتردد في دسها في كتابها على الفور ليلة عيد الميلاد.

أشكرك أيضاً على ما فعلتَه من أجلي. إنك متبحّر إلى حدٍّ بعيد في الشعراء الفرنسيين، وأنت من الرأي القائل إنهم لا يستطيعون كتابة "n'est ce pas? -". لقد أثّر فيّ مالارميه كانعكاس شجرة كرز مزهرة في العين،

كمنديل عَطِر، أو كيعسوب على كتف سبّاح في نهر عذب. إذن، يمكن لك أن ترى بالأبيض والأسود أيّ إيحاء كبير يحمل في طياته.

فُقِدَ أثر رجل، كتبتُ، ولا يجدر بي أن أضعك في موقع المتحمّس لمعرفة الخبر أكثر من هذا. فالذي تلاشى كلّ أثرٍ له هو قس بوتن، القس بالدور سكوغسّون، شقيق فالديمار "الخصيتين" الذي رقص مع عمود الإنارة في "ذي ليذر تراوزرز". المغفّل استحوذتْ عليه فكرة البريّة، وأن يطارد ثعلبة لاصطيادها في الجبال، رغم أنّ الطقس كان شتاء قحّاً، وكلّ الذين هنا توقعوا أنّ عاصفة ثلجية مهيبة على وشك الهبوب. (خدشت قطةٌ عجوزٌ نفسها ليلة رأس السنة، وهذا ينذر بقدوم ريح عاصفة مخيفة؛ هوذا نوع الأرصاد الجوية التي نحترفها هنا). ما أريد قولَه هو أنّ الرجل لم يره أحد منذ ذلك الوقت، ولا يتطلّب الأمر مخيلةً وقّادة لتبيان ما الذي تعرض له.

يعتقد الناس أنّ هذا الأمر سيحثّ المعنيين على إعادة النظر في شروط عيش الكهنة في المناطق الريفية. القس بالدور احتكر كلّ خنادق الثعالب في الأبرشية كي يزيد من دخله عبر بيع جلد الثعلب الباهظ الثمن. قطعاً، لأصيب العباد بالشقاء لو انصرف القساوسة للتضحية بحيواتهم في سبيل مطاردة الثعالب فقط لأنهم قساوسة فقراء.

"رَوحة بلا رجعة" هو كل ما يمكنني قوله بشأن اختفاء القس بالدور؛ لطالما اعتبرتُه سفيهاً بدرجة فظيعة.

أبّا تعني: هافديس.

إيتزا تعني: الله.

إيتزا ها – أم تعني: إن شاء الله.

إيتزا أُوم تعني: إن لم يشأ الله.

إيتزا – أومبا أوبا – هارا تعني: نور الله، الشمس أو الروح.

أوفا – هارا هو – فاك تعني: القمر.

أوت – دا – دا هو – فاك تعني: النجوم.

إيف – إيتز تعني: الضوء.

فوفا هويا تعني: الملائكة.

أوفا كُو – كُو تعني: الجنة.

إيتزا إي – أديغا تعني: الله يعرف الجميع.

أوتزينا – مَثيًّا تعني: عيد الميلاد.

إيتزا رو – رو تعني: المسيح.

أوتزينا – هويا تعني: عيد الفصح.

أوتزينا – مورتا تعني: يوم الأحد.

أڤ – أڤ تعني: تكلم.

كو – كو تعني: غنِّ.

أندها ها – أم كو – كو تعني: فلنُغنِّي.

أوم أڤ – أڤ تعني: لا يريد التكلم.

أومرا تعني: لا أعرف.

أمْهْ – أمْهْ تعني: جميل، جيد.

أوقّو – كِر تعني: قبيح.

فوتزو تعني: رجل.

هال – هال تعني: بنت.

فوفّا – رو تعني: طفل.

فورّو تعني: شخص.

مامبا تعني: عصفور.

مورثانا – هويا تعني: نهار.

هو – فاك تعني: ليل.

سا – أودو تعني: البحر.

فَدي – فد تعني: مطر.

هُوِيرا تعني: شتاء.

كا تعني: نار.

فافّ – فافّ تعني: كاهن.

كوندورا تعني: ملك.

تامبا تعني: ثياب.

أومف أبّا تعني: صندوق هافديس.

فيفي – پوپو تعني: ترتيلة.

پوپو تعني: ظلمة.

إيبو تعني: نوم.

بين يديك الآن "قاموس أبّا"؛ هذا كل ما كانت تتكلم به حين وجدتها. وكما ترى، هناك عدد لا بأس به من المفردات التوراتية، وهي تعزز إيماني بأنها كانت.. لا، لن ألتزم الصمت حول ما أعرفه يقيناً بخصوص أصول هافديس. لا أخفيك سراً؛ وستحتفظ به لك وحدك. لطالما وثقت بك، صديقاً حميماً ومعلّماً.

إذن، كان ذلك في أواخر شهر شباط/ فبراير عندما ابتُلينا، نحن قوم وادي دالور، بواحد من أتعس الرجال حظاً في آيسلندا؛ سولفي هيلغَسّون، المتشرّد وغيرِ المتخصص بأيٍّ من المهن التي يمارسها. كان يتزحلق على مزلجته من مزرعة إلى أخرى، مستجدياً الطعام، مستدراً عاطفة أناس مشفقين، مصلحاً بعض الأشغال الخشبية أو داسّاً نميمة

عن منطقة سكنية أخرى. ذو الأربع عيون هذا طرق بابي أيضاً ومكث هنا لأسبوع. وجدته ماهراً في لوحاته وأنه يتحلى بمنطق سليم. لم أضجر منه، لكنّ سولڤي هذا كان خرباً، جسداً وعقلاً، والناس هم من صنعوا فيه هذا الخراب.

لكنه في إحدى الأمسيات بدأ يتحدث عن أبّا، منادياً إياها باسم لوفي - وأقول، أنا الذي أطلقت عليها اسم هافديس، قائلاً إنها ابنة يون، الأمر الذي يعني حتماً أنها "ابنة عائلة آيسلندية"، لكنني التمست في كلامه كلّ الصدق. قال إنه وجدها مُتَخَلّىً عنها على طريق جبل كولور؛ كان لها سبعة أعوام في ذلك الوقت، بتقديره. أمضت ثلاثة فصول على الطريق برفقته، إلى أن استطاع تتبّع خيط عائلتها فأعادها إلى منزل ذويها. خلال الوقت الذي قضياه معاً صنع سولڤي لأبّا نعشاً من أخشاب طافية وغالية الثمن عثر عليها في هورن. عندما أتى على ذكر هذا أدركت أنّ ما يقوله ليس إلاّ الحقيقة، حتى إنه وصف أيضاً النقشَين باللاتينية اللذين وُجدا في نعش أبّا؛ بالفعل، كان هو من قام بكتابتهما.

بعد سنين، عاد سولڤي إلى المزرعة حيث عاشت لوفي. كان كل ما هناك في حالة مخيفة: انتحرتْ أمها متجرعة السمّ وقام الوالد ببيع طفلته لبحّارة غرباء، قبل أن يمضي في طريقه لدراسة الكهنوت. الرجل الحقير هذا لم يكن سوى بالدور سكوغسّون الذي أصبح شمّاس كنيسة هُفدي؛ وقد تحصّل بدلاً من ابنته ذات السنوات الاثنتي عشر على بندقية صيد تُعبأ من الأمام وكيساً من الطلقات.

لعلّك تبيّنتَ الآن لماذا كنت أتحدث عنه ببرود. لكن، عزيزي، قد تكون رسالتي قد أتخمت شيئاً فشيئاً بالأسى والحزن، فأرجو منك مسامحتي إن كنت قد أضجرتك.

وعلى ذكر الأمر! إذا ما أتيت إلى "شارع تاج الأميرة"، هل يمكنني أن ألتمس من لطفك دخول محل آنتي بيرش وطلب رطلين من خليط طعام الفطور وثماني أونصات من شاي دارجيلينغ؟ لديّ حساب هناك وسيقومون بإرسال الطلبية إلي. كلا، لا أنوي احتساءها بمفردي؛ فقد "ورثت" أحد خُدّام الكاهن. اسمه هافدان أتالسون، رجل بسيط العقل لكنه شغّيل، وقد قام بشرب كميات لا بأس بها من الشاي، حتى إنّ باستطاعته التغلب على مجلس اللوردات الإنكليزي برمته.

تحياتي الحارة إلى السيدة والدتك. أرجو أن يكون الخليط النباتي قد لاقى استحسانها: الزعتر، السرخس، القش الأصفر المزهر وورق البتولا. وبإمكاني، متى شئتما، إرسال المزيد، إذ تتوافر مجموعة كبيرة من الأدوية العشبية الآيسلندية.

في أمان الله، عزيزي برينيولفسون، وليرافقك الحظ السعيد أينما حللت – حتى لحظة الحياة الأخيرة.

صديقك المحب والنجيّ على تخوم "العالم الصالح للسكنى".

فريدريك ب.

حاشية: مرة أخرى، أرجوأن تسامحني على رسالتي الكئيبة هذه. أعدك أن أضمّنها محتوى أفضل في المرة المقبلة، بعد أن أكون تجرعت بعض الكحول! (الصورة المرفقة ضمناً هي من عمل سولقي؛ إنها تظهر، كما يبدو، الشيطان وهو يُدخِل الحاكم المبجّل كثيراً في ثقب ط..زه).

Au revoir!

ف.

«شون هو أحد أكثر الكتّاب المعاصرين إنتاجاً. «الثعلب الأزرق» رواية سحرية تقدّم لنا ملامح من آيسلندا القديمة في قالب حديث الشكل بدرجة لا تصدَّق. إنها واحدة من الروايات المفضلة لديّ». **بيورك**

إنه العام 1883. منظر طبيعي في شتاء آيسلندا القاسي يمثّل خلفيّة للمشهد. نتبع الكاهن بلدور سكوغّسون في مطاردته ثعلباً أزرق غامضاً. لكنّه ما إن يضغط على الزناد، حتى ننجرف بعيداً إلى عالم «فريدريك ب. فريدريكسون» ذي المذهب الواقعي، والفتاة «أبّا» عُهدتُه التي تعاني متلازمة داون. كان فريدريك قد وصل مصادفة خلال تخليصها، بعد أن عُثِرَ عليها العام 1868 مقيّدة إلى دعائم خشبية داخل سفينة جانحة.

شخصيات الرواية مصائرها مترابطة بصورة جوهرية، وتدريجياً، وفي سياق مفاجئ، سيتكشّف أن جزءاً من هذه الحكاية الأخّاذة مشتمل على الخرافة، وجزءها الآخر مشتمل على الغموض.

ولد شون في ركيافيك، العاصمة الآيسلندية، العام 1962. نشر أولى مجموعاته وهو في سنّ السادسة عشرة. وتتالت مؤلّفاته بعد ذلك لتشمل الشعر، الرواية، المسرحيات وكتب الأطفال. رشّح اسمه لنيل أوسكار أفضل أغنية كتبها في فيلم «راقصة في الظلام».




ISBN 978-1-85516-948-7

